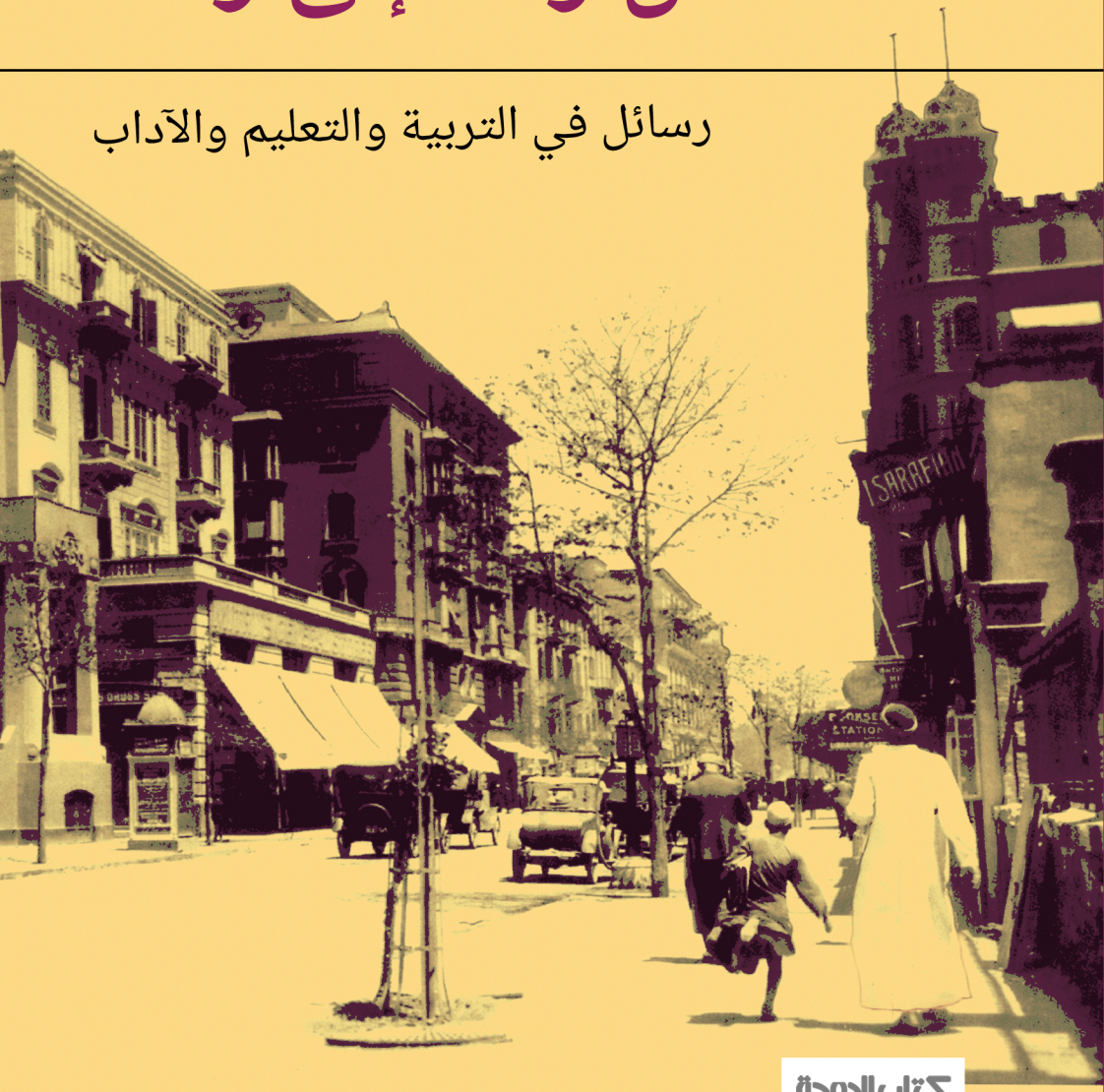
أحمد حافظ عوض بك

من والد إلى ولده

رسائل في التربية والتعليم والآداب



كتاب الدوحة

من والد
إلـــى ولده

يُوزّع مجّاناً مع العدد (107) من مجلّة «الدوحة» - سبتمبر - 2016

من والد إلى ولده

تأليف: أحمد حافظ عوض بك

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: صورة لأحد أحياء القاهرة في بداية القرن العشرين
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

أحمد حافظ عوض بك

من والد إلـــــى ولده

رسائل في التربية والتعليم والآداب

كتاب الدوحة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

وبعد، فهذه مجموعة رسائل، كان يبعث بها إليّ والدي من مصر، وأنا طالب في الكلّيّة الأميركية في بيروت، وقد حرصت عليها، طول هذه السنين، حرص البخيل على درهمه. وما كنت أظن أن هذه الرسائل ستُنشر في كتاب، كما أن والدي لم يكن يفكِّر، وهو يبعث بها إليّ، من القلب إلى القلب، أنها ستُعرَض على الأنظار، وتقدَّم للناس، في مختلف البقاع والأمصار. ولولا أن حضرة خليل بك صادق أقنعني، وأقنع والدي بضرورة نشرها، ما ظهرت، وما نُشِرت.

فأنا، بكلّ أدب ووَجَل، أقدِّم هذه الرسائل الخاصّة إلى أهل الفضل، وعشّاق الأدب، وطلّاب الحقيقة، أينما وُجدت. وإن كان لي فضل فيها فذلك هو أنني كنت شديد الحرص عليها، عارفاً بقيمتها.

وإني أتقدَّم لوالدي مقبِّلاً يديه، رافعاً أكفّ الضراعة، أن يطيل الله في حياته، ويحفظه ذخراً لوطنه وأمّته.

جمال الدين حافظ عوض

الرسالة الأولى

إلى ولدي العزيز،

قبل أن تقرأ هذه الرسائل التي وضعتها حبّاً فيك، وشغفاً بك، وحرصاً على مستقبلك، وهدايةً لك وإرشاداً في سبل حياتك، أحبّ أن أشرح لك العوامل التي دفعتني إلى توجيهها إليك، وأوضِّح لك العواطف التي حملتني على أن أبادر بوضع هذه المبادئ والخطط لك خشية أن يذهب الدهر بي، كما ذهب، من قبلُ، بغيري؛ فلعلَّك، حين تظهر لك حقيقة ما يشعر به نحوك أبوك من عواطف الحبّ الأبويّ، تقدِّر كلامه حقّ قدره، وتتمسَّك بأهدابه، وتسلك الطريق الذي يرشدك إليه. وإني أؤكِّد لك، ولكلّ إنسان لم يصِرْ، بعد، أباً لمثلك، أنه لا توجد في الدنيا عاطفة أقوى من عاطفة حبّ الوالد لولده. وأنا واثق أنك إذا فهمت أنت، ومن كان مثلك، معنى هذا الحبّ الذي تتأجَّج ناره، وتسري روحه، في جميع أجزاء جسم أبيك، وجدت أنك إذا اعتبرت ما يلقيه عليه والدك، من النصيحة والإرشاد، وحياً من الذات الإلهية، فما كنت في هذا الاعتبار مبالِغاً؛ لأن النصح الذي يصدر من نفس متشبِّعة متشعِّعة بنور هذا الحبّ، لَهوَ مستمَدٌّ من وحي الله إلى القلوب التي خلقها وأودع فيها سره الإلهي.

توجد عاطفات قويّة أشدّ من عاطفة الحبّ، كعاطفة الانتقام وعاطفة الطموح إلى المعالي، ولكنها- مع قوّتها وكبير سلطتها-ممزوجة بالأنانية

وحبّ الذات وشراهة النفس. أمّا عاطفة الحبّ- على لينها وحنانها- فهي أمتن رسوخاً، وأدقّ امتزاجاً بالروح، لأنها أقرب إلى الفطرة، وأثرها منصرف إلى الانعطاف على موضوع وجودها، لا إلى خدمة مطامع القائم بها؛ بمعنى أن في حبّ العاشق لمعشوقته، دافعاً له إلى الانعطاف على مالكة لبِّه وسالبة فؤاده، وإلى إرضاء شهوة الحبّ في ذاتها، وتراه، لذلك، مستعدّاً لتضحية كلّ مرتخص وغالٍ، من نَفْس ونفيس، في سبيل إسعاد مَنْ تعلَّقَ قلبه بهواها. والحبّ- وهو على هذا من الشرف والسموّ على جميع العواطف الأخرى- أقلّ بكثير، في قيمته ونوعه وجوهره وعرضه، من نوع الحبّ الخاصّ من الوالد لولده؛ لأنه نهاية الفناء في إنكار الذات، ولأنه غير مشوب بشيء من أثر الشهوات، ولأنه، فوق هذا وذاك، نهاية الكمالات.

ولقد خبرت العواطف، على جميع درجاتها وأصنافها، فلم أجد عاطفة أقوى تملُّكاً بالنفس، وتمسُّكاً بالحسّ، من الحبّ الذي شعرت به نحوك، منذ وُجِدت إلى اليوم. وإن شئت أن أحاول وصف حبّي لك فلا أستطيع أن أقول سوى أنه نوع غريب من الحبّ، له معانٍ وتصوُّرات وصفات، غير الحبّ المعروف عادةً. وأذكر، بهذه المناسبة، أنك يوم ولدت جاءني من صديق ذكيّ أديب، خطابُ تهنئة، لا يزال عندي بين الآثار التي أحفظها، ليكون لك ذكرى في المستقبل، وفيه يقول:

«اليوم، يُفتَح لك في قلبك باب قد كان مغلقاً من قبل، وسيكون هذا الحبّ الأبويّ واسطة في تهذيب مشاعرك، كما أنه سيزيد في تلطيف مزاجك، وترقيق وجدانك».

وما كنت أتصوَّر، إذ ذاك، معنى هذه الكلمات، بمقدار ما تصوّرته بعد؛ فهذا الحبّ الغريب المالك لأَزِمَّة قلبي، المتشعِّع تشعُّعُ النور في كلِّ ذرّة من جسمي، الممتزج امتزاج الماء بالراح بجميع عواطفي ووجداني وإحساسي، والمتخلِّل في كافة خلايا وجودي..

هذا الحبّ الكامل، هو الذي يملى عليّ ما أوجِّهه لك ولأخوتك من النصح والإرشاد.

فكِّر في قوَّة هذا العامل وفي جلاله؛ لكي تركن إليه، وتستمع إليه، ولا تخالفه في هدايته:

لا أنكر عليك أنه لا يبعد أن تجد نفسك- وقد بلغت، في يوم من الأيّام، مبلغ الرجال الذين عركوا الدهر، واختبروا الناس، ودرسوا الحياة دراسة كاملة- على خلاف معي في بعض الآراء التي أعرضها عليك. وإنَّما أرجوك أن تتصوّر- أوَّلاً- أنني، فيما أضمّه لك من القضايا العامّة، لا يصحّ أن يوجد بيني وبينك، أو بين أحد من الذين تقدَّموا لطَرْق هذا الباب، خلاف. أمّا في تفاصيل الأحكام على الأمور والناس والظروف، فإن كثيراً منها قد يظهر في أشكال شتّى، باختلاف الظرف والزمان والمكان. لكن، حين ينضج العقل، ويشتدّ ساعده فإنه يصبح قادراً على مقابلة كلّ حالة من تلك الشواذّ بما يناسبها، ويعلي قدر صاحبه ويحفظه من السقوط في مهواة الأخطار أو الأسف، ولابدّ لي أن أنبِّهك إلى أنه إذا جاز لك، في مستقبل عمرك، أن تناقش رأياً من آرائي أو تضعه تحت منظار الشكّ، فلا يجوز لك أن تتعرَّض لهذا العمل الشاقّ المحفوف بخطر الخطأ قبل أن تصل إلى مثل سنّي واختباري في الحياة، وإذا أردت أن تعتمد عليَّ، وأنت، بلاشكّ،

مقتنع بشديد رغبتي في خيرك، فلا تحاول الاختلاف في نقطة أو دقيقة من الرأي معي؛ لأنك لا تصل إلى مثل ما وصلت إليه من التعمُّق في النظر إلى الأمور، إلا إذا دست شوك التجربة الذي دسته؛ أي أنه يلزمك أن تضحّي كثيراً من راحتك ومن صحتك ومن مستقبلك، لتعرف مثلما عرفت. وأَوْلى لك ولَن كان على شاكلتك، أن تستفيدوا من تجارب غيركم. وأذكر كلمة القائل «لعلّ آثار أقدامنا في رمال الصحراء، تهدى ضالّاً إلى سبيل الأمن والهناء».

وهذه الرسائل التي أضعها لك إنّما أردت أن تكون أمام عينيك تهديك، في صحراء هذه الحياة، إلى ساحل السلامة. فإذا لاح لك أن تتحوَّل عنها قليلاً، في وقت من الأوقات، فلا تبعد عنها بمقدار يضلّك في مهامها، بل سِرْ يميناً ويساراً، ولكن ارجعْ، بأسرع ما يمكن، إلى الطريق الذي رسمت لك. كُنْ، مع نصحي هذا، كما تكون في حِمام البحر وأنت لا تعرف السباحة.

لا تترك الحبل من يدك لئَلّا تغرق، وإن درت حوله كيفما درت، فأنت آمن مادامت يدك قابضة عليه. وإذا وصلت إلى اليوم الذي تجد نفسك فيه عالماً ماهراً بالسباحة، فلست في حاجة إلى هذا الحبل، ولكني أؤكِّد، كذلك، أنك ستجد نفسك- وقد بلغ بك الشعور بقوَّتك ومقدرتك مبلغه، فاندفعت تسبح برأيك مستقلّاً- في حاجة إلى الرجوع إلى شاطئ، ومرفؤه صدر والدك.. وهو في هذه الرسائل.

والله أسأل أن يوفِّقك، ويهديك، ويجعلك أقدر على نصح نفسك من نصحي لها.

الرسالة الثانية

ولدي العزيز،

كثير من الناس المحبّين لتهذيب أبنائهم، وتربيتهم تربية صالحة يسارعون في إرسال أولادهم إلى المدارس أو المكاتب وهم في سنّ صغيرة جدّاً، كالخامسة أو السادسة. وبعضهم يبدأ في إلقاء الدروس، بواسطة المعلِّمين أو المعلِّمات في مثل هذا السنّ؛ حبّاً منهم في حشو أدمغة أبنائهم الأطفال بمبادىء العلوم والعرفان، حتى لا يكاد يصل الطفل إلى التاسعة من عمره إلا وقد خطا خطوة كبيرة في التعلُّم، ولكنني أخالف، عن اعتقادي، هذه القاعدة، ولا أحبّ أن أبدأ بتعليمك حرفاً واحداً قبل الثامنة من عمرك، وكنت أسمع الاعتراضات في ذلك فلا أحفل بها؛ لأني أرى أن التسرُّع في حشو ذهن النابت بالمعارف ومبادئ العلوم، وما يرتبط بها من حفظ كلمات اللغات، ممّا يضرّ بصحة الناشئ، ويجعل استعداده العقلي أقلّ ممّا لو تُرِك ينمو مع الطبيعة، يفهمها، وتفهمه.

وما أدري ما فائدة أن يتمِّم المبتدئ دروس التعليم الابتدائي على ما نعرفه في قطرنا المصري، ويجوز امتحان الشهادة الابتدائية في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، ثم ينوء عقله تحت أعباء التعليم الثانوي فلا يكون مبرِّزاً فيه، وقلَّما يتمّه في المدّة المقرَّرة له. وقد لاحظت، في كثير

من الشبّان المصريين الذين عرفتهم معرفة تامّة، وخبرت ماضيهم في التربية، ولاحظت كذلك في نفسي، أن الطفل المصري شديد التأثُّر، سريع البديهة، فإذا أثقل عقله في صغره، يظهر عليه الضعف والكلال في كبره، ولاحظت- أيضاً- أن الطفل الذي يُبدَأ بتعليمه قبل أن يشتدّ ساعده في سنّ السادسة أو السابعة، وكان شديد الذكاء ميّالاً إلى الدرس منكبّاً على العمل، بحيث يتمم دراسته المعروفة عندنا، ويحوز الشهادة العالية مثلاً في سنّ الثامنة عشرة أو العشرين، على الأكثر (وقد رأيت وعرفت من هذا الفريق كثيرين)، أقول: لاحظت على هؤلاء، في الغالب، أن نجاحهم في الحياة يكون بطيئاً جدّاً، وقلَّما يتخطّون درجة، من الرقيّ، مخصوصة، كأنهم يضعفون جسماً وعقلاً. و- بالعكس- لاحظت كثيراً أن من دخلوا في صفّ التعليم في سنّ متأخِّر، نسبيّاً، ينجحون بسرعة، وينظرون إلى فروع العلم نظر الرجال، ويختارون منها بمقدار ما يؤهِّلهم للفوز في الامتحان، والفوز في الحياة.

وقد فضَّلت، في أمر تربيتك، توسُّط الطرفين، فتركتك تلعب وتنمو وتجالد الطبيعة حتى وصلت إلى فوق الثامنة من عمرك، وبعثت بك للتعلُّم، وأظن أن تجربتي قد أفادتك؛ لما ألاحظه عليك في هذا الدور من النجابة وسرعة إدراك ما يعجز عنه من كان في سنٍّ أصغر من سنّك، ولو أنه يتلقّى مثل دروسك.

ولا أريد أن أعرض عليك نصيحةً أو بياناً فيما يختصّ بالتعليم الابتدائي لأنك فيه- كغيرك- مُسَيَّر لا مُخَيّر، وقلّ أن تقدر على الاستفادة من رأي أطرحه عليك وأنت في مثل هذه السنّ. والكثير ممّا أكتبه لك في هذه الرسائل هو لفائدتك في أوقات أخرى، حين تبلغ سنّ الإدراك الحقيقي،

وتركن إلى آراء والدك، وتنصرف، في تهذيب نفسك، وتوسيع دائرة عقلك، بما أرسمه لك من الخطط والأساليب، وبما يخطر في بالك ممّا يناسب أوقاتك وظروفك.

ولكن ذلك لا يمنعني من أن انبِّهك إلى نقط، قد تنفعك في مستقبل الزمان، إذا مَنَّ الله عليك بأنجال، تريد العناية بتربيتهم وتعليمهم، ولعل فيما أكتبه لك، في هذا الباب، فائدة أخرى للآباء والمعلِّمين.

يحسن بالنابت في دور التعليم الابتدائي أن يحافظ على مبدأ الإتقان أو الضبط في كلّ ما يقوم به من الكتابة، أو يكلَّف به من التمرينات؛ لأنه إذا نشأ على صفة الضبط في ترتيب كراريسه ورسم حروف الكتابة ووضع أرقام العمليات الحسابية وتخطيط المصوَّرات الجغرافية، تربَّت فيه مَلَكة العناية والإتقان والدقّة، وتأصَّلت فيه صفة الحرص على عمله، والرزانة في فكره. ولا يُطلَب من النابت في سنّ التاسعة أو العاشرة أن يجلس للدراسة، وينكبّ على المطالعة، ويحفظ الكثير من الأبيات الشعرية، والقطع النثرية عن ظهر قلبه؛ لأنها لا تفيده بشيء، ولا يبقى منها حرف واحد بعد زمن قليل، ولا تُربّي عنده ملكة الذوق في الإنشاء، أو تترك في دماغه أثرَ ما فيها من الحسن وجمال التركيب، فكلّ عمل، من هذا القبيل، فاسد مضيِّع للوقت، بل متعب لعقل الناشئ؛ لأنه يحمِّله أكثر ممّا يستطيع، ثم لا يشحد ذهنه للتأمُّل والاستنتاج والقياس. وإذا كان الإنسان، في سنّ الثلاثين، لا يتذكَّر بعضاً ممّا حفظه من القطَع والأبيات والحِكَم: النثرية، والشعرية، وهو في سنّ العشرين وفوق العشرين، فكيف ينتفع ناشئ بما يُكَلَّف بحفظه عن ظهر قلبه وهو في سنّ العاشرة، مثلاً؟.

هذه هي مبادئ علماء التربية الحديثين الذين استفادوا من تجارب غيرهم، وهذه، كذلك، خبرتي الخصوصية تؤيِّد فكرة إهمال تحفيظ الناشئين جُمَلاً وعبارات مُطَوَّلة أو مختصرة. وكلّ ما يجب الحرص عليه، في هذه الدور، هو شحذ الذهن وتوسيع دائرة الخيال وتنمية فكرة كلٍّ من المنطق، والاستدلال، والقياس، في العقل؛ بمعنى أن يقتصر على المطالعة في تلك المعاني الجميلة والعبارات المأثورة عن كبار الكتّاب السابقين، ويترك للمبتدئ التأمُّل فيها، وإدراك معانيها العامّة، ومعانيها الخاصّة؛ لأن لكلّ قول حسن معنيَيْن: معنى عامّاً على ظاهره، يكفي إدراكه لتصوُّر الغرض منه، ومعنى خاصّاً، وهو ما انطوى عليه من حكمة عالية، أو غرض بعيد، أو تحليل فلسفيّ دقيق.

وقد رأيت نفسي- بالرغم عنها- مجبراً على أن أترك لمعلِّميك في المدرسة السيرَ بك على ما رُسِم لهم في نظامات التعليم، لأنك مضطرّ أن تأخذ درجات مخصوصة، وتنتقل في أدوار التعليم المدرسي. لكني، مع هذا، وجّهت فكري إلى لفت نظرك إلى معنى ما تقرؤه، ولم أكلِّفك تلاوة ما تحفظه من تلك العبارات، حتى لا تفهم أنني افرح كما يفرح كثيرون من الآباء إذا ردَّد أبناؤهم أبياتاً من الشعر أو جُمَلاً من النثر.

واعلم- يا بنيّ- أن العبرة في التربية والتعليم هي تثقيف الذهن وإعداده لمقابلة الحوادث والأمور المختلفة، حسّيةً كانت أم معنوية، والسعي في معالجتها، وتكييف كلّ ظرف بما يناسبه. ولن تقوى هذه الملَكة؛ ملكة التروّي والتصوُّر وقياس المسائل، بعضها ببعض، وتقدير كلّ حال بما يناسبها، أو هي- بالاختصار- ملكة المنطق في الأمور المادّية والأمور الأدبية، إلّا بالتأمُّل والاستقراء وإنماء ملكة البحث والشغف بالوصول إلى

معرفة الحقائق. وتنمية هذه الملَكة وتكوينها وشحذها من أسهل الأمور على المتعلِّم والمعلِّم والابن والوالد: انظر إلى السموات والأرضين، واسأل عن الكواكب والنجوم، واسأل عن الماء والهواء، والأشجار والأثمار، أو الفواكه والأزهار، واسأل كيف يسير هذا الترموای، وكيف تجري هذه السيارة، وكيف تدور هذه الساعة، وتلك الآلة.. اسأل كلّ من تعرف: اسأل معلِّمك، اسأل إخوانك، اسأل صديقك، اسأل جارك، اسأل البعيد والقريب، والعدوّ والحبيب، والمواطن، والغريب، عن كلّ ما تصبو إليه نفسك، وعمّا تولِّده الرغبة عندك من حبّ الوقوف على الأسباب والمسبِّبات، والأصول والفروع.. إلى آخر ما يشتهيه عقلك، وتتوق إلى فهمه نفسك.

هذه الملَكة التي أشرت إليها في غاية الاختصار، وتربيتها في نفسك أفضل لك مئة ألف مرّة من كلّ ما تحفظه من أقوال المتقدِّمين، وأقوال المتأخِّرين، لأن ما تأخذه عنهم وتحفظه منهم، إنما هو عارية. أمّا تكوين مَلَكة البحث والاستقراء فهو منك ولك، وهي التي تنفعك في مستقبل حياتك، فضلاً عن أنها أَلْزَم الصفات، وأولى الوسائل في تلقّي علومك، وتكوين خُلُقك.

فأنا لا أهتمّ بما تحفظه وتقرأه وتجيده، من علم وأدب (خصوصاً في سنّك الصغير)، بقدر ما أهتمّ بحسن نظرك، وصدق فراستك، وشغفك بالمعرفة، وغرامك بالوقوف على حقيقة مالم تعرف.

فإذا تأصَّلت فيك صفة الضبط في إتقان عملك وترتيب أوراقك وكتبك وتنظيم ملابسك وأدوات دراستك، ثم متى قويت فيك، في هذه السنّ، ملكة التأمُّل والبحث والاستقراء والاستنتاج والمقارنة، والشغف بفهم ما لم تفهم.. إذا تَمَّ لك هذا وذاك، فقد وضعت، في خُلُقك، الحجر الأساسي

في بناء تربيتك، وكنت به أقدر على مقاومة الزمن، ومكافحة الحوادث، ومقابلة الحياة، في متاعبها وفي لذّاتها. واللهَ اسأل أن يكلأك بعين عنايته، ويهديك إلى الطريق التي أحبّها وأريدها لك. والسلام.

الرسالة الثالثة

ولدي العزيز،

أشرت، في ختام رسالتي السابقة، إلى ضرورة تقوية مَلَكة البحث والاستقراء والملاحظة لديك، وقد رأيت أن أتوسّع في هذا الموضوع بما يليق به؛ لأنه، في نظري، أساس كلّ تربية وتعليم وتهذيب واستعداد للجهاد في الحياة.

الكثير- يا بنيّ- ممّا نتعلَّمه في المدارس لا يفيدنا في حياتنا. وليس هذا القول نتيجة اختباري وحدي، بل هو رأي عامّ، صَرَّح به كثيرون من ذوي المكانة المعروفة في عالم التربية، والأخلاق، والاجتماع. ولو كنت أريد، في هذه الرسائل، أن استشهد لك بآراء مَنْ لهم شهرة عالية مقرَّرة في فروع العلوم البشرية، لنقلت لك في هذا المصدر كثيراً من أقوال أولئك العلماء الأعلام. والذي يمنعني عن الاستشهاد بأقوالهم- على ما فيها من بلاغة الكَلِم وسموّ الفكر- هو أنني أعتبر هذه الرسائل موجَّهة إلى ولد، لا يصحّ له أن يطالب والده بدليل أو برهان أو حجّة على صحّة دعاويه. ولا أريد، من جهة أخرى، أن أبعث في نفسك أثر الشكّ في مبدأ، أضعه لك بما أتبعه به من الاستناد إلى أقوال مَنْ لهم شهرة ثابتة. كما أنني أعتقد أن الحبّ الأبويّ الذي يملي عليّ ما أكتبه لك لا يناقش في نصيحة يعرضها،

أو قضيّة يقرِّرها. أعود، بعد هذا الاستطراد الذي ساقه إلى هذه الرسالة ما قرَّرت من أن كثيرين من ذوي المكانة المعترف بها قد صرَّحوا بمثل هذا الرأي في التربية والتعليم، وهو أن الكثير ممّا تتعلَّمه في المدارس لا يفيدنا في حياتنا. ومن المدهش- يا ولدي العزيز- أن هذه القضية (على غرابتها) قد تكون بديهيّة متَّفَقاً عليها، ومع هذه البداهة وهذا الإجماع، لم يبذل الناس شيئاً من المجهود في سبيل تغيير نظامات التعليم والتثقيف والإعداد للعمل والفوز في الحياة، بل ترى الناس يبعثون بأولادهم إلى المدارس نفسها التي تلقّوا علومهم فيها، وأضاعوا زهرة الحياة في المرور من أبوابها، وعرفوا، بعد ذلك، أنهم لم يستفيدوا منها بقدر ما أضاعوه من العمر والتعب والفرص.

نعم، حصلت محاولات ضعيفة عند بعض علماء التربية، فأرادوا إنشاء مدارس جديدة على نظامات حديثة، كما فعلوا في ألمانيا، بنوع خاصّ، وكما أراد أن يفعل «ديمولان» وأمثاله، ولكنهم إمّا عجزوا عن استنباط طريقة مضمونة لإعداد الناشئين إلى النجاح في الحياة والاستفادة منها بمقدار ما يضيِّعونه من العمر في زمن التعليم، أو أنهم لم يجرؤوا على مقاومة الاعتقاد العامّ لدى آباء الناشئين، فلم يتيسَّر لهم وجود العدد الكافي من التلاميذ؛ ذلك العدد الذي يلزم- حتماً- لعمل تجربة جديدة غير مألوفة. وزِدْ على ذلك أنه لا بدّ، لظهور فضل الطريقة الحديثة، من زمن طويل يكفي لتخريج الطالب ودخوله في معمعمة الحياة، وإثبات فضل الطريقة الجديدة على القديمة.

وليس ممّا يحتاج إلى إقامة دليل أو مناقشة إيضاحية، أن التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما؛ فالعلوم والمعارف والتهذيب

والأخلاق التي كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه في زمن المأمون العباسي وعصره العربي الزاهر، ليست، أبداً، هي المعارف والصفات التي تمكِّنه من الظهور في هذا العصر، الذي اشتدَّت فيه المنافسة، وصارت علومه وآدابه في حالة تستدعي تربية خاصّة، كما أنه لا يصحّ أن يتصوَّر أحد أن ما يتلقّاه أبناؤنا، في مدارسنا المعروفة في بلادنا، هو وحده ممّا يؤهِّلهم لأن يكونوا من رجال هذا العالم؛ لأن مدارسنا (ولا أخفيك الحقيقة، بل لا أخفيها عن الناس أجمعين) لا تصلح إلا لإعداد طبقة من الأفنديّة الذين يقرؤون، ويكتبون، ويلهجون بألفاظ من اللغات الأجنبية، وهم- كيفما أجادوا الكلام بها- لم يدخلوا في روحها، ولم ينهلوا من آدابها وعلومها، وهم، فوق هذا وذاك، إن امتلأت أدمغتهم بجميع فروع العلوم المعروفة عندنا، وصاروا من حملة الشهادات في الطب أو الحقوق أو التعليم أو الهندسة أو الأدبيات، تنقصهم معارف ومعلومات تجعل نجاحهم في الحياة، واستفادتهم من علومهم المدرسية، أكثر ضمانةً وأوفر غايةً، وتنقصهم- أيضاً- صفات، وأخلاق، وتهذيب ممتاز يزيِّن نفوسهم، ويتوِّج معارفهم وعلومهم، ويجعل حياتهم أكثر سعادة وأوفر راحة، وينقصهم- أيضاً- جوهر من جواهر الحكمة الصحيحة؛ هو جوهر التصريف العقلي، وأعنى به تربية الذهن تربية واسعة مطلقة تعوِّده حلّ المشكلات وتصريف الأمور والنظر إلى مسائل الحياة المختلفة نظراً فلسفياً راقياً كما ينظر الطائر المحلِّق في الجوّ إلى مدينة من المدن، أو صَقْع من الأصقاع.

وفي اعتقادي أن هذه الصفة الأخيرة، أو الجوهر الذي أشرت إليه، هو ثمرة العلم والتعليم والتهذيب والدروس والامتحانات، وكل ما في هذا الوجود من أثر التربية.

وهو هذا الجوهر الذي أريد أن أنميه فيك، وأشحذ ذهنك للاستعداد له، وإني أكون راضياً مسروراً آمناً، عليك وعلى مستقبلك في حياتك، إذا أنت استطعت أن تخرج من جميع دور التعليم ودرجاته بذلك الجوهر الذي هو الكلّ في الكلّ.

هذا الجوهر الذي هو- كما قلت لك- غاية الغايات، يجب أن يُرَبّى، في عقول الناشئين، من الصغر، وليس كما يتوَّهم بعضهم من أن الكثير منه أثر من آثار المزاج الفطري للإنسان (وإن كان في هذا القول ظلّ ضئيل من الحقيقة)، أو أنه من الأمور التي لا يُبدَأ في الالتفات إليها إلا بعد أن يتقدَّم الناشئ في مدارج الحياة، ويتلقّى جميع أصول العلوم المعروفة. ولا تتصوَّرَنْ أن تدريب الذهن، وتربية العقل للنمو اللازم، لإدراك تلك المنزلة العالية، من الأمور الصعبة، أو هو ممّا يحتاج إلى دروس خاصّة أو علوم مطولة. أبداً.. أبداً.

لو أن كلّ أب أو والدة أو مربِّية، وكلّ أستاذ ومعلِّم، بل كلّ ناشئ، يوجِّه نظره إلى شحذ القريحة ولَفْت الذهن إلى التفكير والتأمُّل والقياس والاستنتاج والملاحظة والمقارنة في كلّ ما يعرض على النظر، أو يقع تحت الحسّ، لنَمَتْ في الناشئين تلك الملكة العالية التي هي روح التربية، والتي لا تتمّ تربية بغيرها.

ونصيحتي لك، بعد هذه المقدِّمة الطويلة: إذا كنت تريد أن لا تقع في مثل ما وقعنا فيه، من إضاعة الوقت في كثير من العلوم والدراسة التي لم تُفِدنا في حياتنا، وإذا كنت تريد- أيضاً- أن تجعل الدراسة والتعلُّم عملاً غير شاقّ أو مكروه من نفسك، فاعتنِ بتربية تلك المَلَكة بدافع من

نفسك، مع ما أستطيعه من إرشادك، وبما يستطيع واحد من معلِّميك إرشادك إليه. وتأكَّدْ أن الرجل لا يكون رجلاً عالماً راقياً إلا إذا كان في رأسه عقل يصلح لكلّ علم، ولكلِّ عمل، ولكلِّ وظيفة، ولكلِّ ظرف، ولكلِّ حال. وهذا العقل الراقي الواسع الذي يجعل صاحبه مستعدّاً لمقابلة الحوادث، وتصريف الأمور، وحَلّ المشكلات، لا يربّى بحفظ أسماء البلدان والأنهر، ولا بأسماء الملوك والقوّاد، ولا بالإعراب والإنشاء، ولا برطانة أجنبية، أو تلاوة عبارات أدبية أو علمية أو فلسفية.

هذا العقل ينمو من التفكير والتمعُّن والنظر- كما قلت لك- إلى جميع ما يقع تحت العين أو الحسّ، نظرَ المفكِّر المتأمِّل الملاحِظ، المستنتج، المستفهم، المتصوِّر؛ فإذا مررت في الطريق، ورأيت عربات الترام تسير كما ترى، ففكِّرْ في شكلها، أوّلاً، وفي نظام الموظَّفين المنوطين بصرف التذاكر والتفتيش، ثانياً، وفكِّر في الوسائد الخشبية التي وراء ظهرك، ولماذا وُضِعت، وكيف تتغيَّر من جانب إلى آخر، وفكِّر في الخشب الذي صُنعت منه العربات، ومن أيّ بلاد أتى، والألوان التي صُبِغ الخشب بها، وفكِّر، كذلك، في القوّة التي تحرِّك هذه العربات، وكيف تسيل في الأسلاك والآلات، وكيف تنير المصابيح.. وهلمّ جَرّا.. وهلمَّ جَرّا.

ولا تتصورَنْ- يابنيّ- أنني أريد منك أن تعرف حقيقة كلّ شيء من هذا القبيل، وطريقته العملية، أو صناعته الفنّية..، بل أريد منك أن لا تمرّ على ما يقع تحت نظرك مرورَ الأعمى، وأنت ذو عينَيْن مبصرتَيْن!!

اسألْ مَنْ تظنّ أنه أعرف منك- إذا عجزت عن معرفة شيء-: لِمَ هذا الشيء طويل، وهذا قصير؟ لِمَ هذا أحمر، وهذا أخضر؟، ثم إذا ارتقيت في الفكر،

وتقدَّمت في السنّ، وتوسَّعت في العلم، فاجعل هذه الطريقة الابتدائية قياساً لك في الاستفهام من المعلِّم أو الصاحب أو الأخ.

هذا هو الذي أريده بالتمرين الذي يربّي فيك تلك الملَكة العالية التي هي مفتاح السعادة، وطريق العلم، وباب الحكمة.

ومَنْ كان معلِّماً أو مربِّياً أو والداً فليجعل ذلك غاية له.

أنار الله- يابنيَّ- بصيرتك، وشرَح للعلم صدرك. إنه على ما يشاء قدير.

الرسالة الرابعة

ولدي العزيز،

لا أريد، في هذه الرسالة، أن أنصحك بالمواظبة على دروسك والالتفات إلى معلِّميك في أثناء إلقائهم الدروس عليك وعلى رفقائك في المكتب. ولا أقصد- أيضاً- أن أحثّك على مسابقة أقرانك لتكون، دائماً، موضع ثقة أساتذتك وعنايتهم، فإن مثل هذاالنصح مألوف معروف، بل يكاد يكون العمل به أمراً طبيعياً، وصِفَة غريزية في النفس. وما رأيت تلميذاً قد استفاد من نصح بهذه الطريقة، أو من هذا النوع من الحثّ والإرشاد، لكنّ الذي أريد أن أوجِّه نظرك إليه- بنوع خاصّ- هو أمران:

أوّلهما أن توجِد بينك وبين أساتذتك جميعاً (لا فرق بين معلِّم الخطّ، ومعلِّم اللغة) عاطفة ميل وانعطاف، وشعور بأنك من الواحد منهم في منزلة الابن من أبيه، وقد دلَّتْني خبرتي في التعلُّم والتعليم، أنه حين توجد تلك العاطفة، وذلك الشعور، بين التلميذ وأستاذه، تخفّ متاعب الاثنين في الفهم والتفهيم، وتوجد عند التلميذ، من جرّاء ذلك الميل، رغبة شديدة في تلقُّف ما يلقيه عليه المعلِّم، وشغف كبير بالإصاخة له والاستفادة منه. وكذلك، يشعر الأستاذ نفسه، دائماً، بأن هذا التلميذ جزء من متمِّمات وظيفته، فلا يستريح له خاطر إلا إذا تأكَّد أن هذا التلميذ، الذي يشعر

نحوه هذا الشعور، ويحسّ تجاهه هذا الاحساس، قد فهم ما ألقاه من الدرس والإيضاح، ووعِيَه.

ونحن- كيفما كنّا، وكيفما كانت وظيفتنا، وكان مركزنا وعملنا- أناس على الفطرة الطبيعية، لا نشذّ عنها مطلقاً. فالمعلم، مثلك ومثل كلّ إنسان، ذو عاطفة إنسانية، يحسّ في عمله كما يحسّ كلّ فرد في معاملته لشخص مثله، فهو مهما (قبض على قلبه بيده)»، وكان مع تلاميذه غير متحيِّز ولا مميِّز الواحد على الآخر، لا يستطيع أن يمسك قلبه دون الانعطاف، بنوع خاصّ، والحنان، بصفة مخالفة للمعتاد، نحو عدد من التلاميذ الذين يظهرون المحبّة والميل إليه، بالإصاخة له، والترديد لعاطفة الرغبة في تسهيل عمله. ومتى نَمَتْ فيه تلك العاطفة، ووجد ما يماثلها عند التلميذ، وجد بين الاثنين سيّال الكهرباء النفسية، حتى لقد ينساب العلم من عقل المعلِّم إلى عقل تلميذه انسيابَ الماء في الأنابيب من المرتفعات، حتى يتساوى المستوى بينهما.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن الحبّ على أنواع شتّى، ودرجات مختلفة؛ فهو، بين الوالد وولده، والأمّ وابنها، والعاشق ومعشوقه، والصديق وصديقه، والمعلِّم وتلميذه، وأصحاب الصفات المتشاكلة المتماثلة، بعضهم مع بعض، وهو عاطفة تفتِّق الذهن، وتوجد الحنان، وتوسِّع دائرة الخيال، وتصفّي الفطرة الإنسانية. والذين بالغوا فقالوا «الله محبّة»! و«الحبّ رابطة الوجود» معذورون في خيالهم. فإذا كان من حظِّك أو كان من عملك، أن تتمكَّن من بعث نور هذا الحبّ في قلب معلِّمك، واستطاع هو، بذكائه، ولطف مزاجه، ورقّة حاشيته، أن يبعث، في صدرك وصدر رفقائك التلاميذ، أثراً من نور تلك العاطفة، فقد خفَّ تعب التعلُّم على التلميذ، وسَهُل التعليم على الأستاذ.

وقد اشتغلتُ بالتعليم زمناً قصيراً، فكنت، قبل أن أبدأ في إلقاء الدروس، أعامل التلاميذ بلطف ووداعة، وأبعث فيهم الثقة بي، والرغبة في حضور درسي، وأتفرَّس في وجوههم عاطفة الميل نحوي، وأطارحهم الحديث الشخصي، وأبشّ في وجوههم حتى أشعر أنني قد ملَكت أزمّة أفئدتهم، وأشعر، كذلك، بعاطفة الميل منّي إليهم؛ وعندئذ، اشتغل بإلقاء الدروس فلا أملّ منها، ولا أضيق صدراً بصناعة التعليم، وهي على ما هي معروفة به من المشقّة. وكنت أستطيع أن أتمم المقرَّر عليهم في نصف المدّة المقرَّرة.

وإتماماً لفكرة وجود عاطفة الحبّ بيني وبين التلاميذ، كنت إذا بدر من بعضهم سوء أدب أو إهمال أو معاكسة أو ما أشبه ذلك (ممّا يقصده التلاميذ لمضايقة معلِّميهم)، أو لكسل منهم، أو لرغبة بريئة في اللعب والمهاترة، أقول: كنت إذا رأيت شيئاً من هذا، أشتدّ في معاملة بعض المسبِّبين له، وأقول للبعض الآخر: «إنني لا أصدِّق أن مثلك في ذكائه وأدبه وميله إليّ يرتكب شيئاً من هذه الصغائر»، ثم أتظاهر بالغضب منهم أجمعين، وأخاطبهم كأني واحد منهم، كَبُر عليّ أن أجد منهم ما وجدت، أو أسمع ما سمعت، وهم كأصدقائي، مع أني كنت، إذ ذاك، كوالد لأكبرهم في السنّ، فكنت، وقد أيقظت منهم عاطفة الحبّ والإخاء والصفاء، أجدهم قد تأثَّروا و- ربَّما- ذرف بعضهم الدمع، وتألَّبوا على ذمّ المسبِّب لذلك، ثم يأخذون في استرضائي حتى أُظهر لهم أنني قد صفحت، وأنني أحبُّهم أجمعين، وأنني، لذلك الحبّ والحنان، قد عفوت عن الخاطئين منهم.

وأؤكِّد لك- يا بنيّ- أنني كنت، بهذا، أكسب محبَّتهم، وكنت لا أكلِّفهم بعمل إلا أدّوه على غاية من الكمال، وحتى لقد كانوا يترقَّبون الساعة التي كنت أحضر فيها عندهم، بفارغ الصبر. وأذكر أنني استطعت أن أصلح

من أخلاق كثيرين منهم، وأوقظ الاستعداد الفطري للعلم في عقولهم، بعد أن كان قد يئس منهم آباؤهم ومعلِّموهم. وما نتج كلّ هذا إلا بإيجاد عاطفة الميل والحنوّ من جانب التلميذ نحو معلِّمه، ومن جانب المعلِّم نحو تلميذه.

أمّا الأمر الثاني الذي أريد أن أوجِّه نظرك إليه فهو- أيضاً- مرتبط بعاطفة الحبّ، ولكنه، في هذا النظر الثاني، موجَّه إلى العلم نفسه لا إلى الأساتذة.

لا يمكن لطالب علم أن يستفيد منه فائدة ثابتة، ولا يمكنه أن يتشبَّع من أصول العلم وتتأصَّل فيه بذوره، فتنمو، وتتفرَّع إلا إذا مال إلى ذلك العلم ميلاً صحيحاً. فإذا كان الكثير ممّا نتعلَّمه في المدارس لا يبقى في أدمغتنا إلا ريثما نؤدّي الامتحان فيه، وإذا كنّا نجد في تعلُّم العلوم وحفظها ومعالجتها شيئاً من التعب والملل، فما ذلك- في الحالتين- إلا لأننا لم نَمِلْ بقلوبنا إلى تلك العلوم.

لا أنكر عليك أن الناس يختلفون في الميل إلى تلقّي العلوم باختلاف أذواقهم ومشاربهم، وأن هذا الاختلاف هو الذي يوجد الميل إلى علم دون آخر، ويوجد مَلَكة الذوق في واحد، وبالعكس من ذلك، في آخر.

ولا أنكر عليك- أيضاً- أن التعلُّق بالعلم فطرة طبيعية غير اكتسابية. أريد بذلك أن الذهاب إلى المدرسة بعاطفة من الحبّ لتلقّي الدروس والاشتغال بها، خُلُق لا يُعَلَّم، ولا يُكتَسب بالنصح والحثّ والإرشاد.

ولكني، في هذا وذاك، أريد أن أدلَّك على الطريقة (وإن شئت فقل الوسائل)

التي تحبِّبك في العلوم، على اختلاف أنواعها، بوجه عامّ، وفي بعضها أو في واحد منها، بوجه خاصّ؛ لأنك، بغير ذلك الحبّ، لا يتيسَّر لك النجاح في جميعها، وبصفتك طالباً، عليك واجب تؤدّيه نحوها للفوز فيها، عند الامتحانات على الأقران.

فأنا- مع اعتقادي بعِظَم تأثير الفطَر الطبيعية علينا جميعاً، من حيث الميل إلى شيء، أو النفور منه- لا أعترف، مطلقاً، بأنه ليس في مقدرة كلّ إنسان أن يرقّي في نفسه، بالمعالجة وعدم الاندفاع مع الخيال، مَلَكة الرغبة في جميع العلوم، خصوصاً إذا صحب هذه المعالجة قليل من التأمُّل والحكمة؛ كأن يقول الطالب في نفسه: أنا مجبور، بمقتضى النظام الذي قضت به البلاد التي أنا فيها، وبمقتضى الخطط التي وُضِعت للتربية والتعليم والامتحانات والشهادات، وبما يرتبط بها من تقدير الناس، بعضهم لبعض، أن أدرس ذلك العلم، وأن أجيده لأحصل فيه على درجات كافية. وأنا لا استطيع أن أصل إلى ذلك وأنا كاره لذلك العلم، نافر منه، فلابدّ أن أتفاهم معه، وأصادقه ما دمنا على سفر معاً، حتى يتاح لي أن أسير في طريق غير طريقه، وأتركه لغيري ممّن يحبّ مصاحبته.

تقول: وكيف يمكن التفاهم والميل؟ أجيبك أن ذلك أمر سهل: أوّلاً، لا توسِّع دائرة الكراهية في نفسك لفنّ من الفنون، واجمع حواسّك على أنه ضروري لك، واخْلق لخيالك محاسن فيه- وكلّ علم فيه من المحاسن ما لا يحتاج لإرغام الخيال وتكلُّفه، وعليك أن تضيف، إلى الواسطة في الحبّ، صفات المعلِّم ومحبَّتك لشخصه ولطفه وأدبه، كما أبنتُ لك، في الجزء الأوَّل من هذا الخطاب.

ومن الوسائل التي تحبِّب لك علماً، لا تميل نفسك إليه، محادثة المحبِّين له، ورغبتك في مجاراتهم، وشعورك بأنه يجب عليك أن لا تكون أقلّ منهم منزلةً وكفاءةً في ذلك العلم.

ومن الوسائل- أيضاً- أن تطَّلع (ولو اطِّلاعاً سطحياً، حتى من نوع التفرُّج) على مطوّلات ذلك العلم، فإن المطوّلات تكون أفسح للخيال مجالاً، وقد تؤدّي بك إلى الشعور بالميل إلى ذلك العلم.

والخلاصة- يابنيّ- أنك لا تستطيع أن تنجح في تلقّي العلوم، ولا تستطيع- أيضاً- أن تمضي زمن تعليمك باللذّة والسرور والسهولة، إلا إذا كنت محبّاً للعلوم، مقبلاً عليها، غير مسوق للتعلُّم بالعصا والضغط أو الخوف. والله المسؤول أن يجعلك ممّن يحبّون العلم لذاته، فإن محبّة العلم تخفِّف ثلاثة أرباع المشقّة في تلقِّيه وممارسته.

الرسالة الخامسة

ولدي العزيز،

أحبّ، قبل أن أبيِّن لك أهمّيّة التمرين البدني، بعد أن وضَّحت لك طريقة التمرين العقلي، أن أضع نصب عينيك الغاية التي هي منتهى الآمال لكلّ إنسان في حياته، حتى إذا تصوَّرتها تمام التصوُّر، وعرفت ما في طريق الوصول إليها من المشاقّ والمتاعب والجهاد الدائم، أمكنك أن تأخذ العدّة لها، وأن تقدِّر قيمة ما أعرضه عليك في هذه الرسالة حقّ قدره، فلا تتوانى في القيام به، ولا تهملُ في الحرص عليه.

إذا أنا دخلت في موضوع غاية الإنسان في الحياة، أو تحدَّثت عن أفضل الغايات التي يجب أن تُحَثّ إليها مطايا الآمال، اتّسع معي مجال القول، و- ربَّما- دخلت في بحثٍ فلسفي، ليس هذا محلّه، فضلاً عن أنه ليس ممّا تتَّفق عليه العقول البشرية من وجهة النظر، بنسبة ما يتولَّد في النفوس من حبّ المطامع وتوسيع دائرة الطموح إلى المعالي والمجد الفاخر. وقد كتب كثيرون من الكُتّاب الرسائل المطوَّلة والأسفار الضخمة في أساليب النجاح في الحياة، وما أظن أنها أفادت الناشئين إلّا قليلاً، وإن كان فيها ما يدلّ على أن كاتبيها قد خبروا الحياة خبرةً واسعة، وقد سبق لي، منذ زمن طويل، أن وضعت رسالة مطوَّلة في موضوع النجاح في الحياة، ونُشِرت

في كتيِّب اسمه «كلمات في سبيل الحياة». فإذا كنت تفضِّل الاطِّلاع على ما خطَّه قلم أبيك، وما قرَّره فكره في هذا الباب، فاقرأها بإمعان؛ ففيها الكفاية).

أمّا هنا فإني أريد أن أنحو طريقاً جديداً في بيان الأهمّيّة العظمى التي تترتَّب على عنايتك بأمر صحَّتك وتقوية جسمك ورياضة بدنك، في طريق فوزك في حياتك؛ الأمر الذي جعلته نصب عيني فيما أنصحك به في هذه الرسائل، والأمر الذي هو محطّ الرحال، وغاية الآمال.

كلّنا- يا بنيّ- على سفر في هذه الحياة، منذ الساعة التي نفتح فيها عيوننا على نور هذا الوجود، إلى الساعة، بل اللحظة التي نقفل فيها أحداقنا عنه، وعندها، يكون كلّ فرد منّا قد قطع المرحلة التي خُصِّصت له، طويلة كانت أم قصيرة، فمنّا من يقطعها- نسبيّاً- براحة واطمئنان وسلام، ومنّا من يقطعها بمشقّة وحذر وآلام، ومنّا من يُوَفَّق إلى اجتيازها في ساعات صفوٍ دائم، ومنّا من يجتاز مفازته بالكدر المتواصل المتلاحم، ومنّا من تقوده العناية إلى السير، لقطع مرحلته المخصَّصة له، بين حدائق وجنّات وأعناب، ومنّا من تدفعه إلى السير في أشواك وأدغال، ووهاد ونجاد، وجبال وهضاب، ومنّا من يقطع مرحلته في جوٍّ هادئ، ونسيم عليل، وريح بليل، ومنّا من يقطعها في زعازع وأعاصير.. وهلمَّ جرّا.

فالذي يجب أن يكون نصب عينيك، وهدف سهمك، ونهاية مأربك، هو

أن تقطع مرحلتك، التي قُدِّرت لك، في راحة وسلام، وأن تتخيَّر السبل التي تمرّ فيها على ما تطمئنّ إليه نفسك، ويصبو إليه فؤادك من المطامع والآمال؛ وأعني بذلك أن غايتك- إن كنت من العاقلين- يجب أن لا تخرج عن أمرين: أوّلهما راحة النفس، وثانيهما إدراك المعالي.

فإذا علمت أنه لا يمكن الحصول على واحد من الأمرين (وكلاهما ضروريّ لكلّ ذي نفس سليمه كريمة) إلّا بإعداد جسمك في صحّة قويّة قادرة على حملك في سيرك لإدراك غايتك، أمكنك أن تقدِّر قيمة التمرين البدني الذي جعلته موضوع رسالتي هذه.

كما يأخذ المسافر، قبل سفره، عدَّته التي يعتقد أنها ضرورية لحاجاته، من حقائب وملابس ونقود أو مأكل أو مشرب أو غطاء أو فراش أو ذخيرة أو سلاح، كذلك، يجب عليك، قبل أن تبدأ في سفر الحياة، أن تأخذ العدّة اللازمة له.

وفي نظري أن الصحّة وتقوية الجسم هما أهمّ ما يلزم الاعتماد عليه والتدرُّع به. وقد يضع كثيرون التربية العقلية قبل الجسمانية في إعداد الناشئين لقطع مرحلة الحياة، لكني أعتقد أن التربية الجسمانية أَوْلى بالتقديم، خصوصاً أن البدء في إعدادها منذ الصغر ضروريّ، لأنه إذا فات وقتها لا يسهل الحصول عليها، في حين أن التربية العقلية- كما ظهر في كثير من الرجال النابغين- قد يُبدَأ فيها بعد سنّ متقدِّم.

ونحن- يابنيَّ- نعيش في عصر رفاهية، وتأنُّق في المأكل والملبس، وضيق في المسكن، وبعد عن الطبيعة النقيّة، وإفراط في الملذّات، واندفاع في تيّار

ملاهي هذه المدنية، ممّا يعرِّضنا لأمراض متنوِّعة شديدة وخطرة، لا تُعَدّ، ولا تحصى.

ولهذا كانت العناية بالصحّة وتقوية الأجسام، منذ الصغر، ضربة لازب، بل تربية ضرورية للوصول إلى الغاية من الحياة؛ تلك الغاية التي جمعتها لك في كلمتي «راحة النفس» و«إدراك المعالي». وأنا- والدك- قد كان من حظّي أن قضيت زمناً من دور حياتي الأولى في المعيشة الخلوية والرياضة البدنية ممّا لا أظنّه يتيسَّر لك إلا بإرادتك وبمجهوداتك. ومع ذلك أؤكّد لك أنني لا أجد في سبيل تحصيل علم من العلوم، أو الاطِّلاع على معارف عامّة أو خاصّة، ممّا أعتقده نافعاً لي ومريحاً لنفسي في حياتي، مثل ما أجده من الصعوبة في حفظ الصحّة اللازمة لإدراك الأمل وقطَعْ مرحلة الحياة.

فنصيحتي، لك، الآن، هي أن تدأب على العمل لتقوية بدنك بالألعاب الرياضية المختلفة، ويسرّني أن المدارس، اليوم، قد جعلت تلك الرياضة الجسمانية جزءاً من وظيفتها، ولكن ما يؤَدّي في هذه المدارس قليل جدّاً بالنسبة إلى ما يلزمك.

يجب عليك أن تشترك في جميع الألعاب والرياضات الخلوية، فلعب كرة القدم الإنجليزية مفيد لك جدّاً في تقوية عضلات الجسم، خصوصاً عضلات الأرجل والأقدام، وكذلك الجرى والوثب. أمّا الجزء الأعلى من الجسم، حيث الصدر والذراعان والأيدي والرقبة فتلزمه حركات «الجمباز» على «المتوازيَيْن»، و«العقلة»، وما شابه ذلك.

وإنك- يا بنيَّ- لا تفرِّط، مطلقاً، في الانهماك في الألعاب الرياضية

المقوِّية للجسم، مهما وصل بك الأمر إلى جعلها الأساس الأوَّل في حياتك الأولى، لأن كلّ ما تدَّخره منها، في صغرك، ينفعك كثيراً كثيراً في كبرك، وستأتي عليك أيّام كثيرة- إذا مدَّ الله في أجلك- تذكر فيها هذه النصيحة، وتقدِّر ما للصحّة وتقوية البدن من الفائدة العظمى في تمهيد الطريق لفوزك في الحياة.

كلّ عمل، سيكون من حظّك أن تقوم به في هذه الحياة- سواء أكنت جندياً في الحرب، أم كاتباً في الأدب، أم موظفاً في الحكومة، أم محامياً أم طبيباً أم مهندساً- لا تقدر على تأديته، كما تحبّ أنت لنفسك، إلّا إذا كنت في صحّة جيِّدة وقوّة بدنية.

وليست العناية بالتربية الجسمانية قاصرة على ما يلزمك، وأنت في دور طفولتك وفتوّتك، من التمرين والرياضة، لكنك ستكون، فيما بعد، من أدوار حياتك المقبلة، مكلَّفاً اجتناب أمور شتّى واتِّباع خطط محدَّدة للمحافظة على صحتك، والعناية بسلامتك. لكن، اعلم علم اليقين أن ما تحرزه من قوّة الجسم وصحّة البدن، في صغرك، يعوّض عليك بعض ما تهمل فيه من الواجبات في كبرك، وربّما شرحت لك ما أريده، بهذه الإشارة، في مقام آخر.

«العقل الحكيم في الجسم السليم»ويقال: «العقل السليم...»، قضيّة بديهية، تلوكها الألسن وتعترف بها المدارك، ولكنها واحدة من هاتيك القضايا الصحيحة، البديهية، النافعة، الضرورية، التي ترى الناس لا يعملون بها، ولا يكادون يدركون حقيقتها البارزة، الصامتة

الناطقة، إلا إذا خالفوها أو نبذوها، لأنها كالغرض المقصود منها، وهو الصحة؛ لأنها «تاج على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المرضى».

وسلام عليك، وتوفيق الله لك.

الرسالة السادسة

ولدي العزيز،

في رسائلي السابقة إليك، وضعت لك أساسات التربية والتعليم من الوجهة العامّة؛ أي من حيث حبّ العلم، وحبّ المعلِّم، وتدريب العقل، وتمرينه، وتقوية الجسم وتمتينه. والآن، أريد أن أوجِّه إليك، في هذه الرسالة وما يليها، شيئاً من النصائح والإرشادات فيها ما يختصّ بأجزاء العلوم والمعارف التي يجب أن تُقبل عليها، وتتوسَّع في دراستها. وأعرض عليك آرائي في أنواع هاتيك المعارف، وكيفية الاستفادة منها، على الطريقة التي آراها نافعة لك في مستقبلك، مذلِّلة للعقبات التي تقف في طريقك، عند جهادك في الحياة المقبلة عليك. فلقد علَّمَتني تجاربي- كما سبق لي القول في إحدى رسائلي الماضية- أن الكثير مّا نتعلَّمه في المدارس لا يفيدنا في حياتنا؛ لهذا وجب على أن انبِّهك إلى ضرورة الاهتمام الشديد بالقليل من هذه المعارف التي أعتقد، بالتجربة الشخصية وبملاحظة شؤون الغير، أنه أنفع لك من سواه، وأثبت معك في مواطن الجِلاد، والجهاد الدنيويّ.

وليس ممّا يحتاج أن أوضِّحه لك أنك مضطرّ، بحكم العادة ونظام التعليم، ونماذج الامتحانات، وواجب الحصول على الشهادات، أن تقوم

بتحصيل علوم شتّى، قد لا يكون من حظِّك في المستقبل أن تستفيد منها شيئاً، حتى ولا في ظرف واحد من ظروف حياتك وأعمالك، لكنك، مع هذا، مجبر على الاشتغال بها، وقضاء أوقات وبذل مجهودات في سبيل تحصيلها.

وإني- وحقِّك- لو كنت في سعة من العيش تُمكِّنني من أنفق على تعليمك وتهذيبك كما أريد وكما يجب أن تكون، لما أحوجتك إلى اتِّباع هذه الخطط المطروقة في التعليم؛ بمعنى أنني كنت أجود بالمال- مهما كَثُر- لأُمَكِّنك من تحصيل العلوم النافعة في الحياة، سواء أكان ذلك هنا، أم في أيِّ بلد من بلاد العالم، وأسهِّل لك إتقان اللغات، التي هي- في نظري، أهمّ ما يجب عليك الاهتمام به وأنت في سنّ التعلُّم.

نحن- يا بنيَّ- في بلد غريب في مركزه، وأعجوبة في ظروفه وأحواله؛ فهو قطعة من إفريقية، كما هو قطعة من أوروبا، بل هو- إذا شئت- كلّ أوروبا، ولا مبالغة في هذا، فقد قضت عليه ظروف الزمان أن يكون ملعباً لأوروبا، وسوقاً رائجة لأهلها، وطريقاً بين الشرق والغرب. وصار من اللازم على كلّ ناشئ مصريّ يريد خدمة بلاده ورقيّ أمّته، ويتطلَّع للصعود إلى مراتب المجد في هذه الديار، أن يتربَّى تربية خصوصية تجمع بين المعارف الشرقية والآداب العربية والعلوم الغربية، مع التمكُّن من كثير من اللغات الأوروبية.

بمعنى أن الناشئ المصري الذي يريد أن ينبغ، ويمتاز على الأقران مكلَّف بإجهاد نفسه للحصول على أكثر ممّا يُكَلَّف به ناشئ مثله، في بلد من البلاد الأوروبية، فإن الإنجليزي في إنجلترا، مثلاً، قد يستطيع

أن يصل إلى قمّة العلا، ويتسنَّم سنام المجد، وهو لم يتلقَّ من العلوم غير فرع واحد منها، أو يكتفي بالحصول على معلومات عامّة في جميع الفروع المعروفة، وقد لا يرى نفسه، مرَّةً، مضطرّاً أن يتقن لغة أخرى غير الإنجليزية، في حين أن المصري مضطرٌّ- أوّلاً- أن يتقن لغته العربية، وهي تكاد تكون لغة أجنبية بالنسبة إليه، لأنها ليست لغته التي يتكلَّم بها مع أمّه وأبيه، ولا يكتفي فيها بدراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة، على الوجه العامّ، بل يلزمه- إذا كان ممَّن يريدون النبوغ والميزة على الأقران- أن يقف على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، ورقيّ اللغة العربية في عصورها الأولى، في أيام المدنية الإسلاميّة؛ أي في عصر بني أميّة، وعصر بني العباس، ورقيّها، كذلك، في عصر المدنيّة الأندلسيّة، ويقف على تاريخ اللغة في أدوار انحطاطها بعد ذلك، في عصور مختلفة، ونهضاتها في أوقات متقطِّعة، في فترات من الزمن، ثم يمارس الكتابة فيها، ويقارن بين شعرائها وأدبائها في العصور المختلفة، ليكون- حقيقةً- أديباً عربياً.

ثم يتحتَّم عليه أن يتعلَّم لغة أوروبية (إما الفرنسية أو الإنجليزية) تعلُّماً تامّاً، ويقف على آدابها، ويطَّلع على أقوال شعرائها وكتّابها: المتقدِّمين منهم، والمتأخِّرين، ويجيدها، كلاماً وكتابةً، ما استطاع لذلك سبيلاً، ويحسن به، كذلك، أن يتمعَّن في أقوال أدبائها، ويقارنها بأقوال كُتّاب العربية وأدبائها. وبعد أن يجيد العربية وإحدى هاتَيْن اللغتَيْن، يجب عليه أن يتعلَّم الكلام والكتابة باللغة الثانية، ويحسن ذلك، بمعنى أن العارف باللغة الفرنسية، في هذه البلاد، يكون ميدانه أفسح، وطريقه أسلك، إذا هو تعلَّم اللغة الإنجليزية، قراءةً وكتابةً، وأحسنَ الحديث

واللهجة فيها، وكذلك العارف بالإنجليزية فهو، كذلك، يجد جواد العمل والفوز في الحياة أسلس قياداً إذا هو تعلَّم الفرنسية، وأحسَنَ الحديث بها والكتابة، أيضاً.

وإذا هو أتقن هذه اللغات الثلاث يشعر من نفسه، في أوقات وظروف شتّى، أنه في حاجة إلى التكلَّم بلغات أخرى، مثل التركية، مثلاً، وهي لغة الدولة العثمانية التي يرتبط معها بروابط دينية وأخرى اجتماعية. وإذا كان من أهل الأدب، وعشّاق الحقائق، والظامئين إلى الوقوف على كثير من المعارف الشرقية عن العرب أو الفرس، فإنه يشعر، عند ذلك، أن معرفة اللغة الألمانية من الضروريّات للوقوف على ما كُتِب، ووُضِعَ، وطُبِع عن آثار العرب، وعن مدنيَّتهم، من المباحث الراقية العويصة الدقيقة، في لغة الألمان. وإذا كان من محبِّي الاطِّلاع والسياحة، حبّب إليه معرفة اللغة الإيطالية الحديثة للوقوف على كثير ممّا كُتِب في هذه اللغة الحلوة اللذيذة، ويُكتَب. وقد تفيده إحدى هذه اللغات في ظرف قد يكون سبباً لفوزه في الحياة فوزاً مبيناً.

لهذا، وذاك كلِّه، بعد تجاربي في الحياة، رأيت أن أوجِّه نظرك- يا بنيَّ- إلى تعلُّم اللغات والعناية بأمرها؛ فإنك إن وُفِّقت إلى تعلُّم لغات كثيرة فقد وضعت لنفسك الحجر الأساسي في بناء صرح مجدك المستقبليّ.

وحتى إذا كان من حظِّك أن لا تحتاج إلى معرفة لغة من اللغات، في سبيل تحقيق آمالك ومطامعك في الحياة، فإنك ستجد لذّة، لا تدانيها لذّة، في الاطّلاع على ما دُوِّن من الآثار، وما وُضِع من الآداب والمعارف والأسرار، في كثير من هذه اللغات الأوروبية. فما ألذَّ الاطِّلاع على ما كَتَبه

«جوته» و«شيلر»، من شعراء الألمان، بلغته الأصلية!، وما أحلى قراءة «شكسبير وملتون» و«جونسن» و«ماكول»، باللغة الإنجليزية!، وما ألذَّ الاطِّلاع على أشعار «دانتي» الإيطالية، والاطِّلاع، كذلك، على كتابات «روسو» و«فولتير»، و«هوغو»، وغيرهم، في اللغة الفرنسية!.

وإذا اشتغلت بالتاريخ أو بالأدب أو بالسياسة أو بالحقوق أو بالفلسفة فإنك تجد الكنوز الثمينة في كلّ لغة من هاتيك اللغات، بل أنت لا تستطيع أن تكون عالماً بتاريخ الأمّة العربية وأصول اللغات الساميّة التي تتفرَّع منها لغتك العربية، ولا تكون واقفاً على موسوعات العلوم العربية، وما أُلِّف فيها من الكتب والرسائل، في أيّامها المشرقة الزاهرة، إلّا إذا أمكنك أن تطَّلع على ما دَوَّنه علماء الألمان: المستشرقين، وغير المستشرقين، من مباحثهم العويصة، في هذا الباب.

والخلاصة- يا بنيَّ- أن معرفة اللغات التي ذكرتها لك، تفيدك في حالَتَي الطموح إلى المجد، والاشتغال بالعلم، للفائدة واللذّة والنبوغ؛ ولهذا سأشرح لك، في رسالتي الآتية، الطريقة التي تستطيع بها أن تتعلَّم الكثير من هذه اللغات، بالسهولة، في دور شبابك قبل أن تستعصي عليك، إذا تقدَّمت في السنّ، وانغمست في تيّار الحياة العمليّة.

وأستودعك الله، وأدعو لك بالفوز والفلاح.

الرسالة السابعة
تعلُّم اللغات

ولدي العزيز،

تعلُّم اللغات والتمكّن من أصولها ونحوها وأدبها، ليس ممّا يُعتمَد فيه على حدّة الذهن وصفاء القريحة (وإن كان للذاكرة أثر كبير في تسهيل معرفة اللغات، بل يُعتَمَد، في إدراك اللغات وحفظ كلماتها، وتعليق تعبيراتها في الذهن، للتكلُّم بها أو الكتابة فيها، على المجهود والمثابرة، والعناية والاشتغال الصحيح بها.

اللغات لا تؤخَذ اغتصاباً، ولا تُتْقَن لهواً وتسليةً كبعض المعارف والفنون التي تميل إليها النفوس، وتنصرف إليها العاطفة الفطرية، كآداب اللغة، وقرض الشعر، وعلم التاريخ، والعلوم التي يُعتَمَد فيها على التصوُّرات والذكاء والتعقُّلات، كالفلسفة، وعلوم الاجتماع؛ فإنه إذا تمكَّنَت في النفس عاطفة الميل لعلم من هذه العلوم، فإن العاطفة نفسها كافية للحثّ على مداومة البحث، لما فيه من اللذّة. حتى لقد يكون الاشتغال بها لهواً وتسليةً إلى أن يجد الإنسان نفسه، في كثير من الأحوال، ملمّاً بأطراف هاتيك العلوم، بل مبرِّزاً فيها، دون أن يشعر بمجهود التحصيل فيها.

أمّا تعلُّم اللغات فيحتاج إلى تعب وعناء في زمن التعلُّم، فلا يتمكَّن طالب من التمكّن من لغة إذا هو لم ينصرف إليها بقلبه، ويجعل نصب عينيه غرض التمكُّن منها، فيبدأ- أوَّلاً- بدرس نحوها ووضع أساس ذلك نقشاً كنقش الحجر، في ذهنه، ثم يشتغل بمطالعات خفيفة في كتبها، وتقييد كلّ عبارة عن عباراتها البليغة، أو تعبيراتها المألوفة، أو أمثالها المضروبة، في مذكِّرة صغيرة، يحفظها في جيبه ليداوم الاطِّلاع عليها والرجوع إليها، في كلّ وقت، سواء في الدرس، وفي زمن النزهة، وفي السفر، وفي الإقامة.

قلت، في رسالتي الماضية، إنني أريد أن أرسم لك الخطّة التي يجب أن تضعها نصب عينيك للتمكُّن من تعلُّم اللغات الكثيرة التي أشرت إليها، وبرهنت لك على أنها ضرورية لك للفوز في مضمار الحياة العصرية المستقبَلة. والآن، أنا عامل بذلك، فأقول:

ستبدأ بتعلُّم اللغتيْن الأساسيّتَيْن: العربية، والإنجليزية، في مدرسة تمكِّنك من كلتيهما أحسن التمكُّن، في وقت واحد؛ فعليك- إذن- حين الانتقال للتعلّم الإعدادي، أي حين تبدأ بتعلُّم اللغة الفرنسية، أن لا تتلقّاها بتساهل وقلّة اهتمام؛ اعتماداً منك على أنها لغة ثانوية، كما كان ذلك هو شأننا في المدارس المصرية، لَمّا كنا نتلقّى اللغة الفرنسية لغةً ثانوية، بل يجب عليك وجوباً حتمياً أن تُقبل على تعلّم هذه اللغة بشغف واهتمام، أي أن تتفرَّغ بنفسك لِتَلّقيها وحفظ أصولها وقواعد نحوِها بالعناية اللازمة، وأن لا تقصر اهتمامك بها على ما تتلقّاه من الدروس في المكتب؛ فإن ذلك يكون دليلاً على أنك، مثل سواك، لم تستفد من هذه النصيحة، ولم تتفوَّق على أقرانك العاديّين، من الطلبة، بشيء، أو أن ليس فيك أثر من نار النبوغ التي تظهر في عيون الذين يريدون الفوز على الأقران.

واعلم- وفَّقَك الله، يا بني- أن صعوبة اللغة الفرنسية في مبدأ تعلُّمها، فقط؛ لأنها لغة ذات قواعد كثيرة وأصول متينة، تظهر صعبة المراس شديدة الشكيمة، حتى إذا مارسها الطالب، وصَبر صبراً جميلاً على مزاولتها ومعالجة تصريف الأفعال: القياسية، والشاذّة، والضمائر الشخصية وغيرها، ودقّق النظر في توقيع تعبيراتها النحوية في الأمثلة والتمرينات التي يضعها الأساتذة والتي توضع- عادةً- في كتب النحو «الأجروميات» وغيرها، فإنه يسهل عليه كثيراً أن يتلقّى هذه اللغة في مستقبل أيّامه، بل إني أؤكِّد لك أنك إذا استطعت أن تضع في ذهنك أساس مبادئ النحو الفرنسية، من تصريف أفعال وصحة التفريق بين المذكَّر والمؤنث ووضع الضمائر والظروف في مواضعها الصحيحة، أمكنك، بسهولة، أن تسير في معرفة اللغة الفرنسية، كتابةً وكلاماً، سيراً سريعاً.

وعليك، في خلال هذه الحال (حين تتلقّى الفرنسية بمثابة لغة ثانوية)، أن تكثر من الاطِّلاع على حكايات قصيرة وفكاهات خفيفة، في الكتب الفرنسية التي تقع تحت نظرك، وأن تتَّخذ لك كرّاسة صغيرة «مذكِّرة»، تقيِّد فيها كلّ عبارة تحلو لك، فهماً وتعبيراً وإشارة، وتقيِّد بجانبها معاني الكلمات التي تجدها في هاتيك العبارة الحلوة، بترجمتها إلى العربية أو ما يقابلها بالإنجليزية، وهو الأسهل. ثم لاحظ أن هذه اللغات الأوروبية متقاربة جدّاً، وفيها كلمات كثيرة متشابهة، إن لم تكن في الفروع ففي الأصول منها، فإذا عثرت بكلمة فرنسية لم تعرفها فابحث عن معناها في قاموس فرنسي- إنجليزي، تجد ما يقابلها بالإنجليزية، فإن لم تجد بينهما تشابهاً يساعدك على تعليق الكلمة الفرنسية في ذهنك، فلا تقف

عند معنى الكلمة التي كنت تبحث عنها، بل انزل إلى أصولها ومشتقّاتها في القاموس الذي تبحث فيه نفسه.

وهنا استطراد لا بأس به، ذلك هو أنك لا تستعمل القواميس الصغيرة إلا مضطرّاً؛ ابحث، دائماً، عما تريده في القواميس الكبرى، سواء أكان ذلك فيما تبحثه عن كلمة من لغة إلى لغة أخرى، أو من لغة إلى نفسها. إذا استطعت أن لا تبحث عن كلمة عربية إلّا في قاموس «لسان العرب» فلا تبحث في سواه، وعلى هذا القياس فافعل في الإنجليزية وفي الفرنسية. والسبب في ذلك- يا بنيَّ- ظاهر لمن يجرِّب ويقارن؛ لأنك تجد في القواميس المطوّلة مشتقّات الكلمة وما يتبعها من التعبيرات ووقوع هذه الكلمة في عبارات مشهورة لكتّاب فطاحل وفلاسفة عظام، وسياسيِّين مفكِّرين وشعراء نابغين وما أشبه ذلك، فتجد أنك كسبت مكسباً مزدوجاً: أوَّلاً، بمعرفتك معنى الكلمة؛ معنى يثبت في ذهنك، على مرور الزمن الطويل، بما جمعته حولها من المعلومات والمشتقّات والتصريفات، بحيث توجد الأسباب المساعدة للذهن على حفظ هذه الكلمة؛ ورسوخها، بل حفرها على الذاكرة حفراً أبدياً. وثانياً، أنك تجد، في ما عثرت عليه من معنى الكلمة التي كنت تبحث عنها، العبارات البليغة التي أشرت لك إليها، فتحفظها وتتلذّذ بالاطِّلاع عليها، والاستشهاد بها فيما تكتبه من الموضوعات الإنشائية أو الخطابية أو الكلامية، حتى أنها تكون لك زينة وحِلية في حديثك مع الناس أو استشهادك بها أمام الأساتذة والأقران. ونعود إلى ما كنّا فيه من البحث عن كلمة فرنسية في معجم إنجليزي مطوَّل، فأقول: قلت لك: لا تقف عند معنى الكلمة التي كنت تبحث عنها، بل انزل إلى أصولها ومشتقّاتها، خصوصاً إذا كنت لم تجد تشابهاً بين الكلمتيْن:

الفرنسية، والإنجليزية، فإنك لابدّ أن تجد، في المشتقّات من الكلمة المشار إليها، ما يوجد التشابه المطلوب المساعد على ربط المعنيّيْن، وإني إذ أردت أن أضرب لك مثلاً من هذا القبيل أجد نفسي مضطرّاً إلى استعمال ألفاظ إفرنجية كثيرة، بحيث تخرج معي هذه الرسائل عن الطريقة العلمية التي أردتها لها، ولا ضرورة لضرب الأمثال، فإنه تكفيك تجربة واحدة صغيرة لتصوير المراد من هذا الباب تصويراً متمكِّناً في نفسك.

وأعود فأنصحك بالجَلَد والصبر والعناية والتأنّي في مبدأ تعلُّمك اللغات، فإن ما تبذله من هذا القبيل، في مبدأ حياتك، يفيدك كثيراً كثيراً في مستقبل أيّامك، ويُعْلي شأنك، ويرفع ذكرك، وينفعك في أدقّ المواقف وأحرجها. وأسأل الله أن يقيك المكروه، ويحفظ لك صحَّتك، ويقوّي عزيمتك.

الرسالة الثامنة

اللغة العربيّة
نحواً وأدباً

ولدي العزيز،

لا يُطلَب منك- يا بنيَّ- أن تكون رجلاً لغوياً مبرِّزاً على غيرك في دقائق اللغة وفنون الآداب العربية، فإن ذلك غير ميسور لك، ولا لأمثالك الذين يتربّون تربية عصرية جامعة لعلوم شتّى ومعارف جمّة ولغات متعدّدة، ثم ينقطعون إلى فَنّ من الفنون العصرية النافعة، في معترك الحياة، لمن يريد أن يكون مثلك من رجال النهضة العلمية العصرية، ورجال الظهور في الحياة الدنيا.

أقول: إن ذلك غير ميسور لك، للأسباب التي بيَّنتها- بإيجاز- فيما تقدَّم، ولأنني لا أريد لك أن تنصرف بكلَّ مجهوداتك للاقتصار على اللغة العربية، لتكون من فطاحلها وأعلامها الذين يُشار إليهم بالبنان، وثِقاتها الذين يُرجَع إليهم في الدرس والتعليم؛ لأن ذلك يقطع عليك سبيل الفوز على الأقران، واكتساب الثروة والجاه العريض والمجد المؤثَّل، إلّا إذا توجَّهَت نفسك إلى خدمة اللغة العربية، وتضحية حياتك ومستقبلك في هذا الباب، دون سواه، فتلك غاية محمودة في ذاتها، ولكني أصرِّح لك أنك تعيش بائساً، وتأسف

على مجهودات بذاتها، وأوقات قضيتها، وتندم حين لا ينفع الندم.

لكلّ مرشد طريقة، ولكلّ ذي رأي نصيحة، و- ربَّما- تهيَّأت نفسك لما أحذِّرك منه، بل- ربَّما- سمعت من الناصحين عكس ما نبَّهتك إليه. لكن، يجب عليك أن تقف، بنفسك، في ميلها عند حَدّ الإدراك بأن ما تذهب إليه من الشوق غير مخصب لحياتك، ويجب أن تعرف، فوق هذا، أنني أنا- والدك- لا أريد لك السير في هذا الطريق الذي أعرف مافيه من المتاعب والخسران، وأنني أحبّ لك، من صميم فؤادي، أن تكون صالحاً للعصر الجديد، والحياة الواسعة التي أرشدك إلى سبيلها.

ولْتَعْلمَنْ أنك مقبل على عصر جديد شديد التزاحم، وأن دائرته أوسع ممّا يسمح به التفوُّق في لغتنا، للفوز في هذا المعترك. ومع هذا، فإني- بما لي من الشغف بلغتنا العربية وآدابها، وبما أعتقده من أن حياتنا القومية ومستقبلنا، بصفتنا أمّة تطمح للرقيّ والنهوض إلى مصافّ الأمم المتمدينة، مرتبطة بحياة اللغة العربية وإعلاء شأنها، وتكوين آدابها، ونشر العلوم العصرية بها- أريد لك أن تأخذ من اللغة العربية بقسط وافر، وأن تسمو فيها على أقرانك، إجادةً في الكتابة، والخطابة، والفصاحة، وحسن البيان، وسرعة البديهة، وظرف التعبير، ورقّة العبارة.

قد يخالجك الشكّ في معنى ما أريد بيانه، أو يخيَّل إليك بعض التناقض فيما عرضته عليك، إذ تقول: كيف يمكن أن آخذ، من اللغة العربية، بقسط وافر، وأن أسمو فيها على الأقران، إجادةً في الكتابة، والخطابة، والفصاحة، وحسن البيان، وسرعة البديهة، وظرف التعبير، ورقّة العبارة.. إلى آخر ما تقول في هذا الصدد، إذا أنا لم أكن لغوياً مبرِّزاً على غيري في دقائق اللغة

وآدابها؟ أليس في هذا شيء من التناقض؟ فأجيبك: لا تناقض ولا تعارض إذا فقهت إلى تمام القصد من هذه الرسالة. ولكي أزيدك بياناً أدخل معك في بعض التفصيل الذي يحتمله هذا المقام، فأقول:

اعلم- يا بنيَّ- أن الحياة قصيرة، والعلم طويل، وأن اللغة العربية بحر خضمّ لا ساحل له، وأنك لو انقطعت لها، طول حياتك، جاعلاً بغيتك النبوغ فيها دون سواها، لاقتضى عليك أن تترك ماعداها من العلوم والمعارف اللازمة لفوزك في الحياة. ولكي تكون لغوياً عربياً أو شاعراً كبيراً، يلزمك أن تنقطع إلى اللغة العربية دون سواها، فتبدأ بحفظ القرآن الشريف والحديث وكتب اللغة المتعدِّدة، وتطَّلع على شعراء الجاهلية، وتحفظ أشعارهم، وتُتْبِع ذلك بشعراء الطبقة الأولى من المخضرمين، وتقف على أيّام العرب لتفهم بها ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك المهمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة، والأخبار الخاصّة، ثم تنقطع إلى مادّة اللغة ومعجماتها، بحيث لا تفوتك منها شاردة ولا واردة، وتجيد دراسة النحو والصرف والاشتقاق، وتتبع اللغة في تطوُّراتها، وإن زدت في ذلك رجعت إلى تاريخ اللغة وأصولها في اللغات القديمة، كالعربية والحِمْيَرية والنبطية والفارسية. ودون ذلك خرط القتاد، وإضاعة العمر، ولا أقول فيما لا فائدة فيه؛ فكلّ اشتغال بعمل جدّي له فائدة تُذكَر، بل أقول فيما لا يؤهِّلك للفوز والنجاح الصحيح في العصر الجديد الذي أنت مقبل عليه، ولكلّ زمان أحكام، ولكلّ عصر تربية واستعداد، والعالم جهاد وجِلاد، وواجب على القائد الذي يدخل في حرب أن يعدّ لها من القوّة والنظامات العسكرية ما يوافق قوّة أعدائه ونظاماتهم وخططهم ونوع أسلحتهم، وإلّا باء بالخيبة والخذلان، بل الموت الزؤام.

والآن، أقول لك، من باب زيادة البيان والإيضاح عمّا أريد، إنه ليس من الضروري، لمن أراد أن يكون أديباً، طلق اللسان، فصيح الجنان، بليغ العبارة، طليَّ الإشارة، في اللغة العربية، أن يتوغَّل في فيافي اللغة، ويبالغ في الانكباب على دراسة نَحْوها وأصولها، لأن الإنشاء، مثلاً، مَلَكة في النفس، كالشعر والغناء والتصوير، لا يبرع فيه من لم يكن مهيَّأً له، وقد قال ابن خلدون فيلسوف الاجتماع، وسيِّد الكتّاب المنشئين المفكِّرين، في باب الأدب: «إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فَنَّي المنثور، والمنظوم»، وقال- أيضاً-: «إن جمع كلام العرب لا يستلزم، دائماً، الاضطلاع بالأدب، بل هناك استعداد فطري، يضعه الله في صدر الإنسان، وسرٌّ في سويداء فؤاده، وعَلَقة قلبه، لا يعلمه إلّا الذي أودعه، وإنما يزكو على المطالعة، ويربو بارتياد الأشكال الملائمة».

ولَكَمْ رأيت من الكتّاب المجيدين، والشعراء المبرِّزين، مَنْ لم ينقطع إلى اللغة، ولم يكرع من مناهلها، بل من لم يجد نَحْوها وصرفها، فضلاً عن تتبُّع آثار كُتّابها وشعرائها! فالذي أريده لك- إذن- هو أن تربّي فيك - إذا كان فيك ميل للأدب العربي- تلك الملكة، لا بالتعمُّق في اللغة، والانقطاع لها، بل بالتأمُّل في محاسنها، واقتطاف أزهارها، وبترويض الذهن على استجلاء جمالها، وتكوين عاطفة الميل والمحبّة لها، لتكون- إن شاء الله- كما أريد لك، ملمّاً بأطراف الأدب، رقيق الحاشية، طليّ العبارة، صحيح القول، حسَن الإنشاء، وإن لم تعدّ في الصف الأوَّل من صفوف الكتّاب أو الشعرآء إلّا إذا خصّك الله بنبوغ في ذلك يعوِّض عليك ما تضيِّعه من الزمن النفيس في دراسة اللغة، على الطريقة التي أطلبها منك، كما شرحت لك.

نعم، إن للُّغة العربية قوماً، يجب أن ينقطعوا لها، ويرتادوا ديارها، ويتوغّلوا في مجاهلها، ليكونوا أساتذة لها، وحجّة ثقة فيها، وليزيدوا في نحوها وارتقائها، ويكونوا عمّالاً في بناء قوامها، وإعادة مجدها. وربّما، جاء الزمن الذي تُقَدَّر فيه مجهودات مثل هؤلاء الرجال، فتكافئهم الأمّة على مجهودهم خير مكافأة بالتعضيد الحسّي والتعضيد المعنوي. ومثل هؤلاء الرجال لا يُطلَب منهم، إذ ذاك، مثل ما يُطلَب منك ومن أمثالك (رجال النهضة المقبلة) أن يتعلَّموا لغات شتّى، وأن يدرسوا العلوم العصرية التي تنهض بهم، وبأمّتهم، ومن علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ العامّ والتاريخ الخاصّ والعلوم الطبيعية، كالطبّ والكيمياء والفلك والميكانيكا والكهرباء، وما أشبه ذلك من المعارف الضرورية للعصر الحاضر.

ولا بأس في أن أستطرد، في هذا الموقف، إلى نقطة معنويّة ونصيحة أبويّة؛ وهي أنك لا تتأخَّر في مستقبل أيّامك- إذا مهَّد الله لك سبيل النجاح إلى المراتب العالية، أو الثروة الطيِّبة- عن أن تمدَّ يد المساعدة والتنشيط، بكلّ ما تستطيعه من حول وقوّة، لأولئك المنقطعين إلى ترقية اللغة العربية وخدماتها، فإنك تخدم، بذلك، نفسك وأمَّتك؛ تخدم نفسك لأنك حين تقرِّب منك أولئك الرجال، وتمنحهم الرعاية والتنشيط، فإنهم لا يقصِّرون في الثناء عليك ورفع منار فضلك، بل- ربَّما- خلَّدوا اسمك في صحائف التاريخ، بما يكتبونه عنك أو ينظمونه فيك، من عباراتهم السرمدية. هذا فضلاً عمّا تكسبه من الحديث معهم وتلقُّط درر معارفهم التي بذلوا لها مُهَجهم، وأسألوا عليها عرق جباههم، فتأخذها وتحفظها عنهم بالسهولة، وبثمن بخس.

ومع كلّ ما تقدَّم، لازلت أريد أن أشرح لك، بقدر ما أستطيع- وإن كنت

لست من فطاحل رجال الأدب، ولا من ذوي العلم الواسع في هذا الباب- ما يجب عليك تحصيله والالتفات إليه، لتكون من ذوي البراعة وأهل المعرفة، وأبيِّن لك أقلّ ما يلزم عليك الوقوف عليه لكي تتجمَّل به، ويكون ذلك أساس التربية الأدبية، التي لا تصحّ أن تكون عربيّاً وابن عربيّ بدونها، وسأكتب لك، في هذا الباب، كلمة مسهبة في رسالتي المقبلة.

وهنا، أستودعك الله، وأبعث لك بتحيّاتي القلبية، وقبلاتي الحارّة، والسلام.

الرسالة التاسعة
تعلُّم اللغة العربية وآدابها

ولدي العزيز،

لا تذهبَنَّ إلى الظنّ، بعد تلاوة رسالتي السابقة، بأنني لا أحبّ أن تكون شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً! كلّا ثم كلّا؛ فإنني- بالعكس من ذلك- أرغب كثيراً أن تمتاز على أقرانك بكلّ ما تستطيع أن تتفوَّق فيه، فإن أجدت معرفة اللغات الأوروبية، التي أبنتُ لك، في الرسالتَيْن: السادسة والسابعة، ضرورة إتقانها، وتخصّصت في فنّ من الفنون العملية كالطبّ أو الهندسة أو الحقوق، وألممت إلماماً عامّاً بالحركة العلمية، والاجتماعية، والأدبية، في العالم، وكنت، فوق ذلك، كاتباً بليغاً أو شاعراً مجيداً في لغتك، فهذا نهاية الأدب، وغاية الطلب. لكن، إن لم تصل، في لغتك العربية، إلى درجة الكاتب المجيد والشاعر المفلَّق، فلا أقلّ، مطلقاً، من أن تكون- كما قلت لك- ملمّاً بأطراف اللغة وآدابها، تحسن الكتابة فيها، بل تجيدها للتعبير عن أغراضك في كلّ مطلب، سواء أكنت من رجال الحقوق، أم من رجال السياسة، أم من زعماء الأمّة، في كلّ طريق من طرق الزعامة. ولكي تكون كذلك، يلزمك أن تعطي اللغة العربية الحظّ الأوَّل من دراستك، فتقبل على تعلُّم النحو والصرف وعلوم البلاغة. وأنت، الآن، في المدرسة

الأميركانية التي قصدت، من إرسالك إليها، أن تجمع بين التعليم المصري الأوروبي، وفي وقت واحد، تجيد تعلُّم لغتك العربية. وقد اشتهرت هذه المدرسة بالعناية باللغة العربية)، حتى لقد تخرَّج فيها الكثيرون من الكُتّاب الأدباء ورجال العلم، في السياسة والعلوم العصرية، ومنهم كثيرون من دعاة النهضة الجديدة، ورافعي أعلام اللغة، وبين أساتذتها، اليوم، مَنْ يُشار إليهم بالبنان، ويفخر بهم، الشرق، وتعتزّ اللغة، فلست بخائف عليك أن تهجر لغتك، وتنصرف بكلّيَّتك إلى اللغات الأجنبية؛ ولهذا أنا واثق أنك، في هذا الوسط وبجوار هؤلاء الأساتيذ، وباتِّباعك ما أرشدك إليه، ولما هو موروث فيك من النعرة العربية، ستتكوَّن فيك مَلَكة الميل إلى لغة آبائك وأجدادك، وتشتدّ فيك رغبة الاغتراف من بحرها، ومتى وجدت هذه الرغبة فيك، فقد مُهِّد لك السبيل.

ومن حسْن حظّكم، في زمانك، كما أنه من حسن حظّ اللغة العربية، أن وُضِعت الكتب العصرية الطيِّبة لتعلُّم اللغة ودراستها على أحدث أنموذج (وإن لم تبلغ، في ذلك، الشأو الذي بلغته اللغات الأوروبية)، حتى صار من الممكن تحصيل الكثير من مادّة اللغة ونَحْوها وصرفها وآدابها، مع الإلمام بعلوم أخرى، ولغات شتى، في زمن يسير، وهذا ما قضت به ضرورة الزمان وحاجة الناشئين إلى تلقّي علوم جمّة عصرية، لازمة للفوز في معترك الحياة، فإن الكتب التي وضعت- أخيراً- في مصر، وفي سوريا لتعلُّم مبادئ النحو والصرف وعلوم البلاغة، فأغنت عن الكتب الأزهرية، عن ألفيّة ابن مالك، وابن عقيل، وكذا، وكذا، قد قرَّبت الطريق، وخفَّفت

عن الناشئين صعوبة الخوض في غمرات هاتيك الكتب المطوَّلة التي وضعها أسلافنا العرب. وساعد على سهولة دراسة اللغة، وسهولة الإلمام بها، وحسن الإنشاء فيها للناشئين، انتشار الصحف والمجلّات والكتب.

على أنني- مع ثقتي بأنك، بالتفاتك وبعنايتك بتعلّم اللغة العربية وآدابها في المدرسة، ستحصل على الكفاية منها، إلى الحدّ الذي أريده لك- شديد الرغبة في أن تمتاز على أقرانك بالتوسُّع في آدابها واستجلاء محاسنها والأخذ منها بنصيب وافر؛ لهذا أريد أن أضع لك بياناً لدراستك الخاصّة، وأعني بها ما هو خارج عن دائرة التعلّم المدرسي، فأقول:

يجب عليك أن تبدأ، في خلال أوقات فراغك من الدروس وأيّام الإجازات: القصيرة، والطويلة، بتربية مَلَكة الميل إلى آداب اللغة العربية، لتنمو هذه الملكة فيك مع تقدُّمك في السنّ، وتفتح لك أزهارها في ربيع عمرك المقبل. ولمّا كان يصعب على الطالب للعلوم الكثيرة العصرية في المدارس (خصوصاً وهو غضّ عود الشباب)، أن يقرأ قراءة جدّية، ويدرس دراسة جيّدة، الكتب التي جعلها ابن خلدون أصول الأدب، وهي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبرِّد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، فليس من المستعصي عليه، وقد نمت فيه مَلَكة الرغبة، وقويت فيه عاطفة الميل إلى آداب اللغة، أن يجعل لهذه الكتب الجليلة حظّاً من دراسته، أو مجرّد اطِّلاعه في أوقات فراغه. ومع هذا فإني، على قِصَر باعي، أضع لك خطّة في هذا الباب، أظنّ أنها تؤدّي بك إلى الغاية المطلوبة لك، وإن خالفت فيها الذين كتبوا في هذا الباب. فأقول إن كتب القصص والروايات والسِّيَر الخيالية أو التاريخية المسبوكة في قالب الخيال، وحتى المشوبة منها بالخرافات، لازمة للناشئ

في حياته الأولى، لأنه في قراءتها لا يشعر بأنه يتعلَّم، وبأن دائرة خياله تتَّسع، بينما هو يلهو بقراءة قصّة خيالية أو سيرة حماسية، مثل قصص كتاب «ألف ليلة وليلة»، و«سيرة عنترة العبسي»، لاسيّما الأخيرة؛ فإن عباراتها فصيحة، وأشعارها جيِّدة السبك وحماسيّة البيان. حقيقة أن هذه السيرة مطوَّلة، لكني أعرف من قرأها كلّها في مدّة لا تزيد على إجازة من الإجازات المدرسية، ولا بأس من أن تُتَّخَذ للرياضة العقلية بتلاوة جزء قليل منها، في أوقات الفراغ من الدراسة.

كما أن الاطِّلاع على الروايات التاريخية، التي وُضِعت أو تُرجِمت في عصرنا هذا، مفيدٌ جدّاً لتنمية مَلَكة الإنشاء وتحسين العبارة اللفظية وتوسيع دائرة الخيال، بنوع خاصّ، مع الحرص على أن لا يعلق بذهنك بعض التراكيب السقيمة التي سقط فيها المترجمون انحطاطاً، للمحافظة على الأصل.

وهذه الخطّة لا تتعدّى الدور الأوَّل من زمن تعلُّمك، ثم يلزم تركها جانباً لما هو أمتن وأدقّ من كتب الأدب، فتبدأ بتلاوة «كليلة ودمنة» لابن المقفَّع. وهذا كتاب لا تقرأه كما تقرأ القصص والسِّيَر التي تقدَّمت الإشارة إليها، بل يلزمك أن تتمعَّن في تراكيبه وأسلوب عباراته وجودة بيانه، ومتى سرى فيك الإعجاب به، فإنك ستميل، من نفسك، إلى معرفة هذا الكاتب الذي يحسن أن يُتَّخَذ أسلوبه مثالاً يُحتذى به، فتشغف بالاطِّلاع على ما كتب، وله كتابان مطبوعان، هما: «الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، وكلاهما من الكتب المعينة على ترقية مَلَكة الكتابة. وفي هذا الدور، يحسن بك أن تطالع الكثير من الكتب الأدبية التي هي من نوع المختارات والمنتخبات مثل كتاب «مجاني الأدب»، وخصوصاً أجزاءه المتقدّمة، من

الرابع إلى السابع، وكلّها خفيفة الروح لطيفة المأخذ، ثم تتدرَّج من هذا النوع إلى الكتب الجامعة لنُبَذ من التاريخ، وقِطَع من الأدب، ونُتَف من الفكاهة والمِلَح، ممّا يغذّي النفس برائع القول، ويُتَّخَذ سميراً للمتأدِّب، وفي مقدِّمة هذه الكتب كتاب «العقد الفريد» للأديب ابن عبد ربه. وقد كان هذا الكتاب الجليل مشوباً بعيوب كثيرة، منها كثرة الأغلاط التي وقعت من تحريف النسَّاخ، وتكرار العبارات، واشتماله، في بعض النقط، على عبارات لا يليق نشرها، ولا تتَّفق مع آداب العصر الجديد، فقام جماعة من أئمّة اللغة والأدب، في هذه الديار، فاختاروا أحسنه، ورتَّبوه، وبوَّبوه في كتاب سمّوه «مختار العقد»، أحسنَ الله إليهم بقدر ما أحسنوا إلى اللغة العربية.

ومن هذا القبيل، في الدرجة الثانية، كتاب «الكشكول»، وكتاب «المستظرف»، وكتاب «فاكهة الخلفاء»، وأمثالها ممّا تمر عليه مرّاً خفيفاً كما تمرّ بين المروج الخضراء والحدائق الغنّاء، فإن رأيت فيها زهرة جميلة من أزهار البيان، فقف عندها وقفة المعجب بها، المستنشق لعُرْفها. ولتكن معك، على الدوام، كرّاسة صغيرة، تلتقط فيها ما تستحسنه من هاتيك الأزهار اليانعة لتضمّها إلى باقة علمك، وإن كانت العبارة مطوَّلة فلا بأس من الإشارة إلى مكانها وذكر صحيفتها وكتابها، لترجع لها إذا أردت الاستشهاد بها أو محاكاتها. ويجدر بك، إذا تمكّنَ منك الإعجاب بفقرة عالية المعنى، رصينة العبارة، حسنة الإشارة، أن لا تكتفي بالوقوف عندها وقفةَ المتفرِّج المستنشق، بل قف حيالها وقفة الدارس المتعلِّم، ولا تكتفي بالنظرة الأولى، بل عاودها، وردِّد النظر والتأمُّل في حبكها، حتى تسري في عقلك سريان الدم في شرايينه.

وكن، فيما تقرأه في مبدأ حياتك، وعند مطلع شمس رغبتك في الأدب، معجباً محبّاً راضياً، من الكاتب، بكلّ حَسَن، حافظاً من كتب الأدب ما تميل نفسك إلى حفظه، فتتجمَّع عندك مادّة ترجع إليها، وتأخذ منها، ثم أعدِ الكَرَّة بعد زمن على ما قرأته- وقد قويت فيك ملكة التصوير، ونَمَتْ عندك روح النقد، وفكرة الإدراك والتمييز- ناقداً منقِّباً مفكِّراً، فمن رأيته من الكتاب محسناً في وصف حالات النفس، غائصاً على لآلئ الحكمة، صادقاً في التعبير، جميلاً في وصف المناظر التي يعرضها في كتابته، فاجتهد في احتذاء مثاله، ومَكِّنْ أقواله وأسلوبه من نفسك. وستجد الكثيرين منهم مغرماً بالمحسِّنات، مضحِّياً في سبيل ضخامة اللفظ، ودقّة المعنى وصدق الرواية، فاكتفِ، من أمثال هؤلاء، بأن تأخذ جانباً من جلال اللفظ، ورصانة التركيب، ومتانة الأسلوب، وإن لم تجد من هذا النوع ما هو جدير بالعناية والاحتفاظ، فَمُرَّ عليه مَرَّ الكرام.

ويحسن بك- يا بنيَّ، بعد دراسة علوم البلاغة- أن تطالع كتابَيْ: «خزانة الأدب» للحموي، و«الوسيلة الأدبية» للمرصفي، لكي توسِّع دائرة التطبيقات والشواهد على قواعد تلك الفنون. لكن على شريطة أن لا تفتتن بالبديع وما فيه من محسِّنات الصناعة، وتهمل المعاني الجيّدة، والحِكَم البليغة، ويكفيك الإلمام السطحي، واقتطاف ما يميل إليه ذوقك في باب الاستشهاد والمِلَح الأدبية. ولتكن مطالعتك للكتب المرتبطة بعلوم البلاغة، في أوقات فراغك وأيّام إجازاتك المدرسية، ولتجتهد كثيراً في أن تقيِّد، في كراسة خاصّة، ما يروق لك من أبيات الشعر وكلمات النثر، مشفوعاً كلّ بيت أو عبارة بما تنتسب إليه من المجاز والكتابة والاستعارة والتشبيه

والقياس والطيّ والنشر وبراعة الاستهلال.. وهلم جَرّا، ثم لا تعد، بعد هذه الفترة من المطالعة المدرسية، إلى هاتيك الكتب، إلا مصادفة.

ثم يجب عليك أن تنتقل إلى ما هو أمتن وأعلى، في باب الأدب وكتبه الجيِّدة. وذلك لا يكون إلا إذا تكوَّنت عندك مادّة وافية من اللغة، وطائفة كبيرة من معاني القول، وفي مقدِّمتها كتاب «الحماسة» الذي جمع فيه أبو تمّام زبدة القصائد العربية البليغة، وكذلك مفضّليات الضبّي، والمعلَّقات السبع. وقد تتمكَّن، بعد قليل من المزاولة والجلد، من فهم معاني أهمّ ما في هاتيك الكتب، من الشعر البليغ، مع التمكُّن من تفسيرها.

ونصيحتي لك، أمام هذه الكتب، أن تكتفي منها- أوَّلاً- بما سهُل عليك فهمه، وما استعصى عليك، في أوَّل الأمر، جاوزه إلى ماتستطيع، وكلّ بيت من الشعر تشعر أنك قد وعيته، ورأيت فيه حكمة جليلة، قيِّده في كرّاسة خاصّة، وردّده في خلواتك وروحاتك وغدواتك، فإن وجدت، بعد هذه المجموعة الصغيرة التي استخلصتها من ديوان الحماسة، والمفضَّليات، والمعلَّقات، رغبةً في نفسك للعودة إلى زيادة مجموعتك، فافعل، وإلا فاكتفِ بالقليل الطيِّب منها، فإن وقتك أقصر من أن يتَّسع للانكباب على هذه الكتب المطوَّلة. وإن مَدّ الله في عمرك، وكان من حظِّك أن تكون صناعتك الإنشاء والأدب، ففي إمكانك أن تغترف من بحرها بقدر ما تريد.

وأمامك، بعد هذا، جولة أخرى في دواوين الشعراء المجيدين من أمثال أبي الطيب المتنبّي، وأبى العلاء المعرّي، والشريف الرضي، وأبي نواس، وابن هانئ الأندلسي. وعندي أنك لو اكتفيت بسيِّد

الشـعراء «المتنبّي»، وكبير فلاسـفة الشـعر «المعرّي»، وأحسـنت اختيار مـا تحفظـه منهمـا، لكفـاك ذلـك مؤونـة، ولقـد كانـت لي، في زمـن دراسـتي، طريقـة سـهلة في قـراءة دواويـن الشـعراء، وهـي أني كنت أعـدّ لكلّ شـاعر دفتراً صغـيراً، وأنقطع، في كلّ يوم، سـاعة أو سـاعتين لتصفُّـح ديوانـه، فأقـرأ القصيدة مرّة واحـدة، وأتصوّر، عنـد تلاوة كلّ بيـت مـن أبياتها، مـا إذا كان مـن الممكن أن احتـاج إلى هـذا البيت، أو ذلـك المـصراع منه، للاستشـهاد بـه في موضـوع إنشـائي أو في خطاب رقيـق لأديـب مـن أصدقائـي أو في واقعة حـال، أو في إشـارة إلى شيء، ممّـا كنـت أتخيَّله في نفسي، فـإن وجدت في البيـت، أو في أحد مصراعيه، أو حتـى في تعبـير منه، ما أظنّـه ينفعنـي، قيَّدته في دفـتري، و- ربَّما- مـررت على القصيـدة، إن كانت غـزلاً أو مديحـاً أو رثاء فـلا أقيِّد منها شـيئاً، و- ربَّما- قيَّدت نصفهـا أو ربعها أو بيتـاً أو بيتين منها، وكانت تكفينـي نظرتـان أو ثـلاث في الديـوان، ولا أكاد أفرغ منـه حتى أكون قـد حفظـت، عن ظهـر قلبـي، ما حـلا لنفسي، ومالـت إليـه جوانحي، وأُتبـع الديوان بالديـوان حتى تجمَّعت لـديَّ طائفة صالحـة، حفظتها واكتفيـت بهـا. ويلزمـك، بعـد هـذا، أن تكثر مـن مطالعـة نوعين من النثر:

أحدهما رسائل الأدباء في المخاطبات والمحاورات، مثل رسائل بديع الزمان الهمذاني، وأبي بكر الخوارزمي. ولا بأس من حفظ بعض مقتطفات من هذا النوع؛ لما فيه من رشاقة الأسلوب والخفّة على الروح، ممّا لا تجده إلا في النادر ممّا كتبه العرب، ويلحق بهذا النوع، من جودة الصناعة،

مقامات الحريري، ومجمع البحرين، وأشباههما، وفائدة هذين تفهُّم حسن الاستشهاد، وجمال التراكيب، واستجماع كمّيّة طيِّبة من أمثال العرب المعروفة التي تلزم كلّ كاتب أو كلّ أديب، في كتابته وفي حديثه. ولا أنصحك بحفظ مقامات أو رسائل كاملة من هذا النوع، لأنه لا فائدة في ذلك، كما أن وقتك أنفس، وذاكرتك أَحْوَج من أن تضيع في عمل شاقّ لا يفيدك بمقدار ما تبذله فيه من المجهود. ولا تنسَ- أيضاً، بعد هذا- أن تقف عند كتاب «نهج البلاغة» وقفة، تطيل فيها النظر إلى أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة، وحِكَمه الجليلة، وسياسته الرشيدة، ولاتنسَ مطلقاً أن تستخلص منه، لنفسك، خلاصةً وافية، تجمع فيها العبارات التي تجري مجرى الأمثال، والجمَل التي تُتَّخَذ حجّة في التدليل على رأي، وتجاوز فيه عمّا عدا ذلك.

ويدخل، في هذا النوع، ويجري مجراه، رسائل كلٍّ من الصابئ، والشريف الرضي، والصاحب بن عباد، والقاضي الفاضل، من ذوي المكانة العالية في النثر، فإنك تلمح، من خلال كتاباتهم، كنوز الحفظ ودرر الاختياروجمال الصناعة، مع حسن التعبير عن الأغراض، فانظر في أقوالهم نظَر المتأمِّل، وقارن أساليبهم بأساليب غيرهم، ممَّن أشرت إليهم.

أمّا النوع الثاني فهو الأسلوب التاريخي، وهو على صنفين: أحدهما يُسمّى بالتاريخ الأدبي، مثل كتاب «الأغاني» الذي مَنْ فاتَه الاطِّلاع عليه فقد فاته الدخول في روح العرب وحياتهم في أيّام زهوهم ومجدهم، ومن هذا الصنف كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، الذي قيل أن من لم يقرأه فليس بأديب، أمّا الصنف الثاني فهو أسلوب المؤرِّخين

وفي طليعتهم، بل حامل رايتهم، والمنارة العالية التي يهتدي بها كلّ كاتب عربي، «ابن خلدون» في مقدِّمته. وليس كلّ ما جاء فيها ينطبق على المبادئ الحديثة الصحيحة، في العمران والاجتماع، ولكن، فضلاً عن كونه أوَّل من بَحَث في هذه الأغراض، فإن فيها أسلوبه فيها البليغ الرصين، الذى يسري مع الروح، ويدخل للنفْس مع النفَس، ويفتِّق الذهن، ويقوّي مَلَكة المنطق. ولا أنصحك- إذا لم تنقطع إلى علم التاريخ- بالانكباب على كتبه المطوَّلة، كتاريخ الطبري، أو الكامل لابن الأثير، أو مروج الذهب للمسعودي، وتاريخ ابن خلدون نفسه، ومقدِّمته التي أشرت إليها آنفاً، وحثثتك على مطالعتها بإمعان، لأن كتب التاريخ العربي- مع جودة عبارتها، في الغالب- هي أسوأ ما وُضِع في اللغة العربية على الأسلوب القديم، كما سأبيِّن لك ذلك في بحث خاصّ بدراسة هذا العلم.

إلا أنه يلزمك الوقوف على نظرات تاريخية تربط لك عصور الكتّاب والشعراء وأحوال الاجتماع المحيطة بهم، والتي كانت عوامل التنشيط أو الحركة الأدبية هي القوّة الدافعة لنبوغ من نَبَغ فيها، وكيف يمكنك أن تدخل في روح المتنبّي وشعره إذا لم تعرف أحوال زمانه وأخبار بني حمدان وسيف الدولة، ثم معاملة كافور الأخشيدي لهذا الشاعر الصميم؟ كما أنه من لوازم معرفة النهضة الأدبية، في ذلك العصر، أن تعرف التنافس الذي كان بين الدول المنشقّة من الدولة العباسية.

ففي دولة بني حمدان نشأ المتنبّي وأبوفراس، وكوفئ أبوالفرج الأصبهاني، وفي دولة بني بويه رُفِعت راية النثر لابن العميد والصاحب بن عبّاد. وإني أنصح لك أن لا تفوتك مطالعة كتاب المستشرق الأستاذ

«نيكلسن» المسمّى «تاريخ العرب الأدبي»، فإنه وُضِع على أسلوب جميل، يمكِّنك من معرفة التاريخ بالقدر اللازم لربط عصور الكتّاب والشعراء والمؤرِّخين والمفكِّرين، في اللغة العربية. وهذا الكتاب، باللغة الإنجليزية، سهل المطالعة جذّاب العبارة، كأنه موضوع في قالب رواية مُحْكمة الحلقات.

ولشدّ ما أحبّ أن أكتب لك عن أهل الأدب العصري، وما جادت به قرائحهم في العهد الأخير، في الشرق، سواء أكانوا من كُتّاب الأدب المحض، أم كانوا من أرباب الأقلام في الصحافة العربية؛ لأني أعرف لبعضهم بلاغة لا تقلّ عن بلاغة المتقدّمين من أهل الصناعة المشهورين، بل- ربَّما- فاقتها، ولكني رأيت أن أترك ذلك لشهوتك العقلية في حبّ الاستطلاع، متى غرست فيك الرغبة في الأدب والميل إليه.

وإن يكن ما ذكرته عن سبب امتناعي عن ذكر أسماء الكُتّاب العصر الأخير ومؤلَّفاتهم وأعمالهم (الأموات منهم والأحياء) كافياً في عدم الإشارة إليهم، إلّا أن السبب الأكبر هو رغبتي في أن أفتح للمناقشة باباً- إذا نشرت هذه الرسائل- لأنه يوجد الكثيرون من المعاصرين على قيد الحياة ممَّن يمتّون إلى الأدب بِصِلة متينة، ولكن شهرتهم محصورة، في حين إن بعض الذين حازوا شهرة بعيدة، وهم حريصون على هذه الشهرة، غير جديرين بالذكر في باب الميزة، ولست ممّن يقدِّرون لعملهم قيمة كبيرة، حتى أحثّ ولدي على الاعتناء بما كتبوا، وما صنَّفوا.

فضَّلت أن أقف معك عند هذا الحَدّ، وأترك لك ارتياد مملكة الأدب

العصرية، وتقدير رجالها وأعمالهم، على قدر ما تحكم به لهم من المنزلة والقيمة الجديرة بالذكر والخلود. وإني واثق من أنك إذا سرت على المنهاج الذي شرحته لك، فإنك- بحول الله وقوّته- ستصل إلى درجة، لا تحتاج معها إلى التزوُّد من مادّة كاتب عصري، مهما عَلَت منزلته، وغَزُرت مادّته. وهذا كلّه لا يمنعني من أن أرشدك، بنفسي، إلى ما لبعض كُتّابنا وشعرائنا العصريِّين من المكانة السامية والمنزلة العالية. ولا يبعد أن أرى نفسي، في زمن من الأزمان- إذا أمدَّ الله في عمري- راغباً في كتابة بحث مطوَّل عن كُتّاب النهضة العصرية.

وفقك الله- يا بنيَّ- إلى حبّ الأدب العربي، وخدمة لغتك ولغة آبائك وأجدادك، ووطنك ودينك. والسلام عليك ورحمة الله.

الرسالة العاشرة
اللغة الإنجليزية نحواً وآداباً

ولدي العزيز،

لا يُطلَب منك، في اللغة الإنجليزية، وفي جميع ما تتعلَّمه من اللغات الأجنبية، مثل ما يُطلَب منك في اللغة العربية، فإن هذه لغتك الأساسية، لغة قومك وعشيرتك، لغة حديثك وكتابتك، لغة أعمالك في نهضة أمّتك، وهي -فوق ذلك- لغة دينك وعصبتك؛ ولهذا توسَّعت لك في شأنها، وحثثتك على الإلمام بأطرافها والتفوُّق فيها على الأنداد والأقران، وقد يطلب منك فيها أن تنشئ الرسائل، وتضع التقارير، وتكتب المذكِّرات، وتقنِّن القوانين، بل قد يُطلَب منك- إذا كانت دائرة حظّك أوسع، ومستقبلك في باب الحياة العقلية أفسح- أن تكون كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، وخطيباً فصيحاً، ومدركاً متفوِّقاً، ومجادلاً قاهراً، ومناظراً ظافراً، وزعيماً مرشداً، ومتكلِّماً على البديهة مرسلاً، أما في اللغات الأجنبية، وفي نوع خاصّ في لغتك الثانية بعد العربية، وأعني بها الإنجليزية، فدائرة ما يُطلَب منك في عملك محدودة، إذ لا يُنتَظَر منك أن تكون فيها مؤلِّفاً ولا شاعراً ولا خطيباً ولا كاتباً، وإن كان يتحتَّم عليك أن تكون على مقربة من ذلك، بحيث تستطيع كتابة الرسائل للصحف، أو مكاتبة أهل هذه اللغة بها،

أو إلقاء خطاب موجز، أو وضع تقرير، أو مذكِّرة أو بيان، ممّا تقتضيه مصلحة عملك، في حياتك المستقبلة؛ فلذلك أريد، في هذه الرسالة، أن أبيِّن لك الطريق القويم لإدراك غاية ما يراد منك، وما يصحّ أن تتوجَّه إليه عزيمتك، بغير إفراط ولا تقصير.

ولقد أجملت لك، في رسالة تعلُّم اللغات، الخطّة التي يجب عليك اتِّباعها، بوجه عامّ، في طريقة دراسة اللغات الأجنبية التي تتوجَّه إليها رغبتك، وتقضي بمعرفتها مصلحتك. والآن، أكتب لك بياناً موجزاً في موضوع تعلُّم اللغة الإنجليزية، نحواً وآداباً، فأقول:

المدرسة التي تتعلَّم فيها كفيلة بدراسة مبادئ اللغة الإنجليزية، نحواً ومطالعة وآداباً، ولها- كما لكلّ المدارس- نظامات وخطط وكتب مدرسية تتبعها، وتسلك سبيلها، وتدرِّسها. والطالب مرغم على السير معها، فلا معنى- إذن- لأن أضع لك طريقة خاصّة لدراسة اللغة الأجنبية، سوى ما أرشدتك إليه، بوجه عامّ، في رسالة تعلُّم اللغات. إلا أنني ألفت نظرك- وأنت طالب- إلى الاعتناء التامّ بنحو اللغة وقواعدها، فإنه لا يتمّ، لمتعلِّم لغة من اللغات الأجنبية، التمكُّنُ منها، ما لم يؤسِّس دراسته فيها على أساس متين من نحوها، الذي يسمّونه «الأجرومية»، وتصريف الأفعال في صيغ الماضي، والحاضر، والمستقبل، والشرط، والأمر، وتركيب الجمل وإعرابها، ومعرفة مواقع الضمائر في صيغة الفاعل والمفعول، ومواضع حروف الجرّ، وما أشبه ذلك من المعارف الأوّليّة في النحو.

ومعلوم، لدى العارفين، أن نحو اللغة الإنجليزية من السهل تعلُّمه بدرجة كبيرة، إذا قيس بغيره من صعوبة النحو والصرف في اللغات الأخرى، ومع

قليل من العناية والتدقيق يمكنك، في زمن يسير، أن تكون متمكِّناً من نحو هذه اللغة، خصوصاً مع كثرة التمرينات في تركيب الجمل وإعرابها وتحليلها.

والذي أوجِّه إليه نظرك، بنوع خاصّ، في تعلُّم اللغة الإنجليزية، هو جودة النطق وصحّة الكتابة، لأن هذين أصعب ما يعترض الطالب في دراسة هذه اللغة؛ ذلك لأن النطق فيها كثير الشواذّ، فكثيراً ما يُنطَق بالحرف على غير أصله فتنطق الألف «واواً» والواو «ألفاً»، والجيم مع الهاء فاءً، كما تعرف ذلك حتى في مبدأ تعلُّمك، وفي هذا تجب الدقّة، وتُستلْزَم العناية، ومداومة الصبر، وحسن التقليد للمتكلِّمين والأساتذة، وكذلك تجد صعوبة في صحّة الكتابة؛ لأن كثرة التماثل في نطق حرفين يتقدَّم أحدهما الآخر أو يتأخَّر عنه، توجِد الريبَ والخطأَ، ما لم تكن كثير العناية، وتذكَّر أن النظر إلى الكلمات، مطبوعةً أو مكتوبةً، يحفظك كثيراً من الوقوع في الخطأ، لتعوُّد النظر على الصحيح، حتى إذا اخطأت في الكتابة تجد، من نظرك، ما ينبِّهك إلى الخطأ.

وممّا يسهِّل عليك تعلُّم اللغة الإنجليزية حفظ الكثير من المفردات. واللغة الإنجليزية من أوسع لغات العالم مادّةً في الألفاظ؛ وذلك يرجع إلى أسباب في تاريخ اللغة. لكن، لا تسلك، في ذلك، طريقة جمع طائفة من الألفاظ وحفظها في قائمة، كما يفعل بعض التلاميذ، أو كما يقضي به بعض المدرِّسين، فإن هذه طريقة عقيمة ومتعبة للغاية، وقلّما يعلق بذهنك، من عشرين كلمة، بعد التعب في حفظها وإجهاد ذاكرتك في مسكها، النصفُ منها. وعندي أن تقف على معاني الألفاظ مرتبطةً بالعبارات الواقعة فيها حتى تربط المعنى اللفظي بمجموع المعنى العمومي للعبارة، وتعيد تلاوة

هاتيك العبارة وفهمها، فتعلق بذهنك معاني ألفاظها بالسهولة، فلا تذهب من ذاكرتك، بعدها، أبداً. وخذ لذلك مثلاً: إذا كنت تقرأ في قصّة صغيرة أو صحيفة من كتاب مفيد، وعثرت، في تلك القصة أو في صفحة من صحف الكتاب، على عدّة كلمات لا تعرف معناها، فإما أن تسأل عنها المعلِّم (وهو الأسهل)، أو التلميذ المتقدِّم عنك، ثم تكتب المعاني بقلم من رصاص على هامش الصحيفة (والأَوْلى أن تكتبها في دفتر صغير مشفوعة بالعبارة الواقعة فيها)، أو ترجع إلى القاموس الإنجليزي العربي، أو الإنجليزي الإنجليزي، فتجد معاني كثيرة، في الغالب، لتلك الكلمة، فتختار، بالبداهة، المعنى الموافق للعبارة التي لديك، وتستفيد، في آن واحد، معاني أخرى للَّفظ، تنفعك في موقف آخر، وهكذا، مع الممارسة وطول الزمن يتكوَّن عندك ما يعبَّر عنه بـ(قاموسك اللفظي)، وكلّما كان قاموسك كبيراً، كانت معرفتك باللغة الإنجليزية أوسع، وأتمّ.

وبعد أن تتمّ دراستك الأوّليّة في النحو والإعراب، وتتجمّع لديك كمّيّة مناسبة من ألفاظ اللغة ومعانيها، ابدأ بالمطالعة في القصص المختصرة والحكايات اللذيذة (هذا عدا ما تقرؤه مع التلاميذ، في المكتب، في كتب المطالعة)، ثم تتدرّج، من هذه، إلى كتب الروايات لكي تأخذك بأسلوبها، ويأخذك الشغف بالقصّة أو الرواية، إلى الاستمرار في مطالعتها، فتثبت عندك مَلَكة التعبير، وتقتبس منها التعبيرات الجيّدة. ونصيحتي لك، في أوَّل مزاولتك القراءة، أن لا تتخطّى عبارةً دون أن تفهمها جيِّداً، وإنَّ كتاباً تقرؤه، وتفهمه فهماً صحيحاً، في شهر من الزمان، أنفع لك، ألفَ مرّة، من عشرين كتاباً، تتخطَّف معانيها أو موضوعاتها خطفاً.

وممّا أنصحك به، في هذا الدور من المطالعة، أن تقرأ لنفسك بصوتٍ عالٍ؛

ليتعود لسانك على النطق بسهولة، وتسمع أذنيك صوت اللغة، فتألفه؛ لإسماع غيرك، ولكي تقدر على الكلام بما تعوَّده لسانك من القراءة. وعليك- إذا عثرت بعبارات تستحملها نفسك، ويميل إليها طبعك، سواء من حكمة عالية، ومن جملة فصيحة سلسلة- أن تقيّدها في دفترك، وتتأنّى في كتابتها حتى ترسخ في ذهنك، ثم تتَّخذها، أمام المعلِّم أو في ورقة الامتحان، شاهداً على تعبير خاصّ، أو مثالاً على قاعدة من الإعراب أو التحليل، أو موقع لفظ في تعبير، فيلحظك المعلم بعين خاصّة، ويرى أنك من المجتهدين الذين لا يقتصرون على الأمثلة الواردة في كتب التعليم، هذا فضلاً عمّا تكسبه من تقييد العبارات من صحّة اللفظ وضبط حروفه الهجائية، للإملاء، وجودة المعنى، وحسن السبك في التراكيب.

والآن، افرضْ أنك تمكَّنت من فهم اللغة، ووصلت إلى درجة الإجادة في كتابتها ومطالعة الكتب الجيدة فيها، فأنتقل معك إلى الكلام عن آداب هذه اللغة، وأذكر لك من الإرشادات التي رأيت، بعد التجربة، أنها تساعدك على زيادة التوسُّع في الإنجليزية، والأخذ منها بالنصيب الوافر الذي لابدّ منه لمن يريد أن يكون في صفّ العارفين حقّ المعرفة بهذه اللغة، فأقول: إن مجرَّد تعلُّم هذه اللغة الإنجليزية للاكتفاء بالكلام الصحيح، وكتابة المراسلات الشخصية، وقراءة روايات أدبية، لا يضعك، مطلقاً، في صفّ الممتازين، الذين يُلجَأ إليهم في وقت الحاجة لعمل مهمّ، قد نقضي به مصلحتك في وظيفتك، إن كنت موظَّفاً، أو في صناعتك، إن كنت رجلاً حرّاً، في أيّ سبيل من سبل الحياة. وأنا إنما أريد لك الميزة على الأقران، والتقدُّم إلى الصفّ الأوَّل في صفوف الناجحين. هذا إن لم أطلب منك أن تكون أنت وحدك الصفّ الأوَّل، أو تكون الرجل الذي يُشار إليه بالبنان، أو- كما

يقول بعضهم- «المنارة العالية التي يُهتدى بها في الليل، والصخرة المتينة التي ينحطّ عنها السيل»، وذلك لا يكون إلا إذا كنت، في كلّ ما تتعلَّم، وفي جميع ما تتوجَّه إليه رغبتك، وتتصرَّف إليه بغيتك، سبّاقاً إلى الغايات؛ فإمّا الصدر أو القبر، وحياة الوسط بين هذين اشتراك مع العامّة، وخور في الطبيعة. فإن لم تستطع- وليس هو بالمطلوب منك-أن تكون منشئاً بليغاً وخطيباً مُفَوَّهاً بالإنجليزية، فلا يصحّ أن تظهر منك بادرة جهل بتاريخ آداب الإنجليزية، بوجه عامّ؛ أي إنه لا يليق بمَن كانت تربيته في الدرجة التي أريدها لك، أن يجهل أسماء كبار الشعراء والكتّاب، ولا أهمّ ما كتبوه وأنشأوه من المؤلَّفات، التي تُعَدّ، عند الإنجليز، في الدرجة الأولى في البيان والمنزلة العليا في فصاحة اللسان، فإن كان لا يُطلَب منك قرض الشعر، فلا مندوحة من الوقوف على أهمّ قصائد الشعراء المجيدين، وليس من الضروري أن تدرس بتوسُّع، رقيّ اللغة الإنجليزية وتطوُّرها في أدوارها، من عهد تشوسر، في أوّل حكم الملك إدوارد الثالث، أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، إلى زمن شكسبير، في النصف الأخير من القرن السادس عشر، في عهد الملكة اليزابيث، وهو في عهد إزدهار الآداب الإنجليزية، إذ ظهر في هذا العهد، من الممتازين، «إدموند سبنسر»، و«فرانسيس باكون»، رافع لواء الفلسفة الحديثة والكاتب الأخلاقي العظيم. فإن العهد الأول، ومدّته قرنان من الزمان (تقريباً): «1370 - 1550»، وأكبر شعرائه «تشوسر»، ويسمّونه «والد الشعر الإنجليزي»، وقد كان أسلوب الشعر، في ذلك العصر، غامضاً وطريقة هجاء الألفاظ قديمة تخالف ما هي عليه الآن. وكانت اللغة الإنجليزية، في مبدأ تكوينها، من اللغات العديدة، كالسلتية، والسكسونية، واللاتينية. ومع أن «تشوسر» هو أول مَنْ قارب، بشعره ونثره، اللغة الحديثة فقد كان تأثير اللغة الإيطالية على «تشوسر»، وكُتّاب

ذلك العهد، ظاهراً إذ كانت مؤلَّفات كلٍّ من دانتي، وبترارك، وبوكانشيو، أكثر الكتب تداولاً بين الطبقة المهذَّبة من الإنجليز. حقيقة أن دانتي مات قبل مولد «تشوسر» بنحو إحدى عشرة سنة (وقيل سبعة عشرة) سنة، لكن «بترارك» و«بوكاتشيو» كانا على قيد الحياة، ويَنْسِب كتاب «تاريخ آداب اللغة الإنجليزية» تأثيراً كبيراً لأولئك المؤلّفين الإيطاليين في كُتّاب هذا العهد القديم، وحتى لقد قالوا إن حكايات «كانتربري» التي هي أكبر أثر لـ«تشوسر»، إنّما هي تقليد لكتاب «بوكاتشيو» «ديكاميروني»؛ أي كتاب «الأيّام العشرة»، الذي جَمَع، أو وَضَع فيه مئة حكاية نَسَبها إلى رجال ونساء فرّوا من فلورنسه ذعراً من طاعون سنة 1384، وبقي أثر النفوذ الأدبي الإيطالي، في إنجلترا، إلى شعراء القرن السادس عشر، وتأثيره ظاهر في شكسبير.

أمّا العهد الثاني لآداب اللغة الإنجليزية الذي يحفل بدراسته دراسة جدّيّة، فيبتدئ بـ«شكسبير» وشعره الضخم، في رواياته البالغة حَدّ الاعجاز، وينتهي بباكون، مؤسّس الفلسفة الحديثة ومقالاته الحِكَمية. واعلم أنك إذا لم تُعْنَ بشكسبير حقّ العناية، في دور تعلُّمك الأوَّل، فإنك لست بآخذ من اللغة الإنجليزية بنصيب وافر، لأن (منزلة شعر «شكسبير»، في الإنجليزية، كمنزلة القرآن الشريف في اللغة العربية)؛ فهو أساس البلاغة، وخزانة الحكمة.

ومع أنهم يعدّون أسلوب شعره قديماً، ويعترفون أن كثيراً من كلماته قد خرجت، الآن، عن معانيها التي وردت بها في شعره، فإنهم- لكثرة تلاوته والإعجاب البالغ حَدّ الإجلال والتقديس لأشعاره وحِكَمه وأمثاله، قد ألفوا نغمته، وردَّدوها، ونطقوا بلهجته، وإن أنكروها؛ لذا يلزمك- يابنيَّ- أن

تعكف على قراءة روايات «شكسبير» وتلاوتها، وحفظ عباراتها والقطع المختارة منها، باهتمام زائد. ولا يهولَنَّك أمره في أوَّل مطالعتك له، فتنفر منه أو تتهيَّبه، لأن صعوبة «شكسبير» في جميع رواياته، واحدة. فإذا أنت فهمت واحدة من رواياته، مثل رواية «هاملیت»، أو رواية «تاجر البندقية»، فهماً صحيحاً، ووعيت معاني الكلمات منفردة، والتراكيب متجمّعة، فقد فُتِح لك الباب بمصراعيه. ورأيي أن لا تبتدئ، في روايتك الأولى، من «شكسبير» منفرداً، فإن لم تطالعها قطعة فقطعة، مع الأستاذ في المدرسة، فاعتمد على طالب متقدّم عنك، سبقت له دراسة (ولا أقول مطالعة) تلك الرواية. وتوجد لروايات «شكسبير» طبعات مدرسية، يصحب كلّ رواية تفسير وافٍ للَّفظ وللمعنى، وهي مفيدة للمبتدئ بـ«شكسبير» كثيراً، ويمكنك- أيضاً- قبل مطالعة الرواية أن تقرأ موضوعها في النثر المعتاد في كتاب «قصص عن روايات شكسبير» وقد ظهرت أخيراً، في إنجلترا، روايات نثرية سهلة القراءة عن كلّ رواية من روايات «شكسبير». والخلاصة أن كلّ مجهود تبذله، في فهم «شكسبير» حقّ الفهم، غير ضائع، بل هو بمثابة الأساس المتين في بناء معرفتك للّغة الإنجليزية المعرفة الصحيحة، التي وصفت لك الغرض منها في مقدِّمة هذا الكلام.

أمّا «باكون» فيكفيك الاطِّلاع الجيِّد على مقالاته البليغة أو على المختار منها، وأفضلها عندي مقالات: عن الدرس، عن الصدق، عن الانتقام، عن الحسد، عن الحبّ، عن الصداقة، عن الصِّغَر والكِبَر.

وأسلوب «باكون»، في المقالات، ليس بالسهل؛ لأن عباراته، مع سهولتها، منفردة، موجزة جدّاً، جامعة للمعنى الكبير في اللفظ القليل، مع بُعْد نظر

وفلسفة في الحكم والأغراض. لكن مقالات «باكون»، مع هذه الصعوبة، لا تحتاج إلا إلى ممارسة بسيطة وعناية في فهم أسلوبه حتى تسهل بعدها البقيّة، أمّا كتبه الأخرى التي جعلت له المنزلة الأولى في عالم الفلسفة، وصَيَّرته خالد الاسم، بصفته واضع أساس الفلسفة الحديثة، فليست ممّا يدخل في آداب اللغة والتمكُّن منها، وإن كانت لازمة لمن يتوسَّع في دراسة الفلسفة وتاريخها وأدوار انتقالها، من عالم الخيالات والتصوُّرات العقلية، والأقْيِسة المنطقية، إلى عالم الحقيقة والعمل، والانتفاع بها في رقيّ العلوم: الطبيعية، والرياضية، والصناعية، أيضاً.

أمّا «ملتون» فيكفيك من شعره «مصة الوشل»، إذ ليس من الضروري، مطلقاً، أن تقرأ كتابَيْه: «الفردوس المفقود»، و«الفردوس المكسوب»، فإنهما مطوَّلان، وقَلَّ مَنْ يدرسهما من الإنجليز إلا من تخصَّص للآداب اللغوية، وإن كان يَحسُن بك أن تدرك الغرض من هذين المؤلَّفَيْن الشعريَّيْن، وتتطلَّع على نتفٍ من مختارات شعره فيهما، خصوصاً ما كان منهما في باب وصف الجنّة والملائكة، ولا بأس من أن تقرأ له، بإمعان، قصيدتَيْهِ: «السرور»، «والتفكُّر»). ولـ«ملتون» من النثر، بعض الرسائل البليغة التي يجدر بك أن تقف عليها، وهي مطبوعة في كتاب صغير اسمه «نثر ملتون»، وتكفيك منها رسالته البديعة التي موضوعها «حرّيّة الصحافة»،

ورسالة في «التربية». وبعد ملتون، تدخل في كُتّاب القرن السابع عشر وشعرائه، منهم مَنْ عاصر «ملتون»، ومنهم مَنْ لم يعاصره، وفي الأوَّلين «دريدن»، وله من القصائد المشهورة «ماك فلكنوي» التي مطلعها:

All human things are subject to decay

and when Fate summons, monarchs must obey.

وهي غاية في بلاغة التقريع المؤلم والسخرية القاتلة لخصومه السياسيين، في ذلك العهد، وله- أيضاً- قصيدة، كتبها في ليلة واحدة عن «الموسيقى» اسمها «Alexander's Feast»، ومطلعها:

Twas at the royal feast for Persia won

By Philip's warlike son...

وله- أيضاً- قصيدة بعنوان «السنة العجيبة- Annus Mirabilis»، وصف فيها حرب إنجلترا مع هولاندا، وحريق لندن المشهور عام 1666. و«دريدن» شاعر من شعراء العرش «Poet Laureate»، من سنة 1670 إلى سنة 1688.

وأحقّ الكُتّاب، في القرن السابع عشر، بالقراءة والتمعُّن والوقوف على بعض رسائله، «جون لوك - John Locke» الفيلسوف، ويكفيك في الغرض المطلوب منه مقالاته عن: «المبادئ»، «الملاحظة»، «المطالعة»، «التربية».

وممّا يجب أن تلاحظه، في دراستك لآداب اللغة الإنجليزية، لا سيَّما بعد

وقوفك على آداب اللغة الفرنسية، كما هو محتَّم عليك- تأثير الشعراء والكتّاب الفرنسيين على الآداب الإنجليزية، في القرن الثامن عشر، حتى سُمِّي ذلك العصر «عصر النفوذ الفرنسي»، والسبب في ذلك راجع إلى نقطة تاريخية، لا بأس من الإشارة إليها.

أَبَنْتُ لك، فيما كتبته لك عن الآداب العربية، ضرورة الإلمام بالتاريخ العامّ لسهولة تصوير الحركة الأدبية وعوامل التنشيط والمؤثِّرات الواقعة على نفوس الكُتّاب والشعراء. وقد كان القرن التالي لـ«دريدن» (من 1688 إلى الثورة الفرنسية 1789) عصر منازعات سياسية، ومناضلات حزبية، وكان الشعراء والكُتّاب ينضمّون إلى الأحزاب المختلفة، ويكتبون ما يُرضي الرؤساء والزعماء، وما توحي به مطامعهم الشخصية، وزِدْ على ذلك أن أنصار الملكية في إنجلترا، الذين هاجروا إلى فرنسا، بعد سقوط تشارلز الأوَّل، ثم عادوا إلى إنجلترا مع الملكية، من أوَّل حكم تشارلس الثاني، تشربوا روح الآداب الفرنسية في صناعة الشعر وتنميقها، والمحسِّنات اللفظية وإتقانها، وانصرفوا إلى جعل الشعر واسطة لبسط الآراء الفلسفية، ووسيلةً لهجو خصومهم، وانتقاد مناظريهم، حتى جاء شعراء القرن التاسع عشر، ففكّوا خيال الشعر من قيوده الصناعية وتأثير «بوالو» بقصيدته «صناعة الشعر - L`Art Poétique» في «بوب»، في كتابه«Essay on Criticism»، ظاهر لِأُولي المعرفة.

في العصر الذي نحن بصدده، ظهر كثير من فطاحل الكُتّاب والشعراء، مثل: إسكندر بوب المتقدِّم ذكره، وديفو، وسويفت، وإديسون، وستيل، وجونسون، وجولد سميث، ودافيدهيوم، وآدم سميث، وتوماس غراي، وأدمون بورك، وجبون، وتستشرفيلد. وكلّ كاتب وشاعر من هؤلاء له

المؤلَّفات المطوَّلة، والقصائد البليغة، والحِكَم الجزيلة، والبيان الرائع، والأدب الغضّ. وإني ذاكر لك بعض ما أظنه ضرورياً لمطالعتك ودراستك، كما أنني واثق من أنك ستجد، في مستقبل حياتك، ميلاً للاغتراف من بحرهم، والتتبُّع لأخبارهم.

يكفيك من «بوب» بعض شذرات من شعره، تجري مجري الأمثال والحِكَم، خصوصاً (رسالته عن النقد) التي قَلَّد فيها «هوراس» اللاتيني، و«بوال» الفرنساوي، فمن ذلك قوله فيها:

A little learning is a dangerous thing;

Drink deep, or taste not the Pierian spring.

وقوله:

Good nature and good sense must ever join;

To err is human, to forgive, divine

أمّا «ديفو – Defoe»، فسيبقى لديك، دائماً، مؤلِّف رواية «روبنسون كروزو» التي يقرؤها كلّ ناشئ باللغة الإنجليزية، ومثله «سويفت» في «سياحات جوللفر».

أمّا «أديسون»، و«ستيل»، فأهمّ ما يُقرَأ لهما مقالاتهما التي نُشِرت في مجلَّتَي، «سبكتاتور – The Spectator»، و«تاتلر– Tatler»، وأحسن ما للأوَّل مقالة «خيال مرزا وصناعة التجهُّم – The vision of Mirza, The Art of Grinning»، وللثاني مقالة «الهناء العائلي –Scene of

Domestic Felicity» ومقالة «on the death of friends» عن وفاة الأصدقاء.

أمّا الدكتور «جونسون»، زعيم الكُتّاب والشعراء في القرن الثامن عشر، فهو المحور الذي يدور حوله عصره، ولابدّ لك من أن تقرأ تاريخ حياته بقلم صديقه «بوزيل»، فإنك لا تشبع من قراءتها، وهي التي توقفك، تماماً، على الحركة الأدبية في ذلك العصر، ولـ«جوسون»، من الشعر الحكيم، قصيدتان بديعتان، تُقرَأان بإمعان، إحداهما تسمّى «لندن»، والثانية «غرور المآرب الإنسانية»).

ولا تفوتَنَّك مطالعة «قسّ ويكفيلد» لـ«جولد سميث»، فهي السحر الحلال، والأسلوب الذي يسيل رقّةً، ويبعث في النفس عواطف الحنان والمروءة ومكارم الأخلاق، وله من القصائد «السائح»، و«القرية المهجورة»)، مما تحبّ قراءتهما وحفظ المختار منهما.

ويُقرَأ من كتابات «دافيد هيوم»، بعض رسائله الأدبية ورسائله الفلسفية، وهي سهلة خفيفة تبعث على التأمُّل، وتربّي مَلَكة التفكُّر. أمّا «توماس غراي» الذي بلغ، في جودة النظم ودقّة الصناعة، نهاية النهايات، فلا تسمّى عارفاً باللغة الإنجليزية مالم تحفظ له- على الأقلّ- قصيدة «مرثيّة في صحن كنيسة قرويّة») وقصيدة «على مرأى من كلّيّة ايتون»).

ومن رجال الفصاحة النثرية والخطابية، والأسلوب التاريخي، في أخريات القرن الثامن عشر، «أدمون بورك»، فإن لم تستطع أن تقرأ تاريخ حياته وبعض خُطَبه الفصيحة، فلا أقلَّ من أن تطالع رسالته «في الذوق»، وكتابه عن الثورة الفرنسوية، ومنهم «جيون» صاحب التاريخ الفذّ الذي بلغ به المكانة الأولى بين مؤرِّخي العالم، وهو مطوَّل في سبعة أجزاء، وموضوعه «تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية»، فإن لم تستطع أن تقرأه كلّه، في دراستك لعلم التاريخ، فلا أقلّ من مطالعة الجزء الخاصّ بظهور الديانة المحمَّدية، وانتشارها، وفتوحات الإسلام، ومقارنته بما درسته، من هذا القبيل، بِلُغَتك العربية، وما جمعته في خزانة عقلك من المعلومات التاريخية. ولهذا المؤرّخ الأسلوب البليغ الذي يتماشى مع الروح، ويسري في النفس بخفّه النسيم، ورقّة الهواء العليل.

ولا تختم دراستك، في آداب القرن الثامن عشر، حتى تتوِّجها بقراءة «رسائل اللورد تشسترفيلد لولده»؛ ففيها المطرب والمعجب من طلاوة اللفظ، ورقّة الأسلوب، إلى بليغ الحكمة وحكمة النصيحة، مع أنه لم يكتب تلك الرسائل لتُنشَر بعده. وستجدني، في بعض رسائلي إليك، راجعاً إلى بعض آراء اللورد «تشسترفيلد».

أمّا شعراء القرن التاسع عشر فقد بلغوا الشأو الأعلى في فكّ الشعر من قيود الصناعة والتكلُّف، وفي سموه إلى الأسلوب الشعري المعبِّر عن وجدانات النفس، وتصوير العواطف الإنسانية، ونبض القلوب البشرية. وزعماء النصف الأوَّل فيه: «وردسورث»، و«كولردج»، و«سوذي»، ويكفيك من الأوَّل مقطَّعاته المسمّاة «Sonnets»، وتؤلَّف من خمسة عشر بيتاً من الشعر، وأخصّ بالذكر منها «Upon Westminster Bridge» التي

مطلعها:

Earth has not anything to show more fair

وأخرى عن «ملتون»، ومطلعها:

«Milton, thou shouldst be living at this hour»

وكثير من هذه المقطَّعات الرقيقة لـ«ورد سورث»، وغيره من معاصريه، وممَّن جاؤوا بعده، مثل كامبل، وكيتس، وشيلي، وبيرون، مجموعة في كتاب المنتخبات المسمّى «الكنز الذهبي – Golden Treasury» للمستر «فرنسيس تورنر بالجراف» أحد أساتذة الشعر في جامعة أكسفورد، وفي هذا الكتاب مختار الشعر من عهد «شكسبير» إلى نهاية القرن التاسع عشر. ولابدّ لك من قراءة قصيدة «كولردج» «البحّار العتيق». أمّا اللورد «بيرون» فله المقطَّعات الجميلة في مجموعة قصائده المسمّاة «ساعات الكسل – The hours of Idleness»، وكلّها خفيفة على الروح، ولا بأس من أن تقرأ له قصيدته الطويلة المسمّاة «سجين شيلون» والتي كتبها بعد هجرته لإنجلترا، وكان عائشاً مع صديقه الشاعر «شيلي»، وليست هذه القصيدة ممّا يُعَدّ في الدرجة الأولى من شعر، لكنها مثال من رقيّ فكره وحماس روحه. وإذا أردت أن تعرف مقام شعر «هومير» وتأثيره على شاعر إنجليزي من شعراء الدرجة الأولى، فاقرأ القطعة التي قالها «كيتس» عند أوَّل اطِّلاعه على ترجمة «تشايمن» لشعر «هومير»، واقرأ، كذلك، لـ«كيتس» قصيدته البليغة التي عنوانها «مساء سانت أجنس– St. Agn`s Eve» وهي طويلة، في نحو أربع مئة بيت من الشعر، واقرأ، كذلك، بإمعان، بل احفظ، عن ظهر قلبك، المرثيّة التي قالها «شيلي» في

صديقه «كيتس»، واسمها «Adonais»، ومطلعها:

I weep for Adonais,he is dead

أمّا كتّاب النثر في هذا العصر فاكتفِ بالقليل من روايات «والترسكوت» واقرأ، كذلك، تاريخ حياة اللورد «نلسون»، بقلم «سوذي»، واكتفِ من مؤلَّفات «كارليل» بالجزء المهمّ من «الأبطال وعبادة الأبطال»، لا سيّما الجزء الخاصّ منه بالنبيّ محمّد (صلَّى الله عليه وسلَّم)، وله كتاب آخر، كَتَبه في أوَّل عمره عن حياة «شيلر» الشاعر الألماني، فإنه، فضلاً عن كونه سهل المأخذ، يعطيك فكرة عامّة عن آداب اللغة الألمانية، ويشوقك إلى التوسُّع في هذا الباب. ولا يفوتَنَّك أن تقرأ لــ«كونتسي» كتاب «اعترافات آكل الأفيون»، فإن أسلوبه فيه بديع جميل. والآن، أنبِّهك إلى أرقّ كُتّاب الإنجليز، وأعلاهم كعباً في النثر الآخذ بمجامع القلوب، أعني اللورد «ماكولي»، فله المقالات الانتقادية: التاريخية، والأدبية، وهو، في نثره، كالسيل المنحدر من عَلٍ، يأخذ كلّ شيء في طريقه، فلا تكاد تبدأ في رسالة حتى تجد نفسك مأخوذاً بقراءتها إلى أن تنتهي منها، على طولها، وأفضل مقالاته- إن صَحَّ التفاضل بينها- الرسائل الآتية التي أنصحك بقراءتها، وهي، فضلاً عن جودة إنشائها الذي هو السحر الحلال، تفيدك فائدة عامَّة في تقدير رجات الكتّاب والشعراء ورجال السياسة الذين كتب عنهم، فإذا أنت قرأت رسالته الأولى، عن «ملتون» ومؤلَّفاته، عرفت قيمة هذا الشاعر ومواضع النقد عليه، وحالة العصر الذي كان فيه، ثم رسالته عن «ماكيافيلي» الإيطالي، مؤلِّف كتاب «الأمير» الذي تُرجِم إلى

العربية، أخيراً)، أمكنك أن تعرف حالة إيطاليا في الزمن الذي عاش فيه «ماكيافيلي»، وعرفت الأسباب التي حملته على وضع كتاب «الأمير» المشهور بالحثّ على الخداع والمكر والحيلة والدهاء في السياسة، ثم رسالة عن «جون دريدن» الشاعر الذي ذكرته لك، وفيها بحث دقيق عن المخيِّلة الشعرية والفنون الجميلة، ونسبتها إلى رقيّ الأمم وتهذيبها، ثم رسالة عن علم التاريخ ونقده، وهي آية الآيات، ولا غرابة؛ فاللورد «ماكولي» أحسن مَنْ كَتَب في التاريخ الإنجليزي، وليس من الضروري لك أن تقرأ كتابه الذي وضعه في ستّ مجلَّدات عن تاريخ إنجلترا إلا إذا اشتاقت نفسك للوقوف على أسلوبه التاريخي، أو أردت أن تقرأ تاريخ ذلك العصر، بالتفصيل. وللّورد «ماكولي» مقالة عن اللورد «بيرون»، كتبها بمناسبة وضع المستر «مور» تاريخ «بيرون»، وفيها الانتقاد المرّ لسلوك اللورد «بيرون»، وتقدير مزاياه الشعرية، وله، كذلك، رسالات مهمّة جدّاً عن الدكتور «جونسون»، وعن «ميرابو» خطيب الثورة الفرنسية، وعن كلٍّ من: والوبول، ووليام بت، واللورد «باكون». وهذه الأخيرة، عن اللورد «باكون»، من أفضل ماكَتَب، وهي تصف لك مقام اللورد «باكون» في عالم الفلسفة، وتشرح لك حياته وكيف أنه، مع سموّ علمه، وعقلهّ قد تلوَّث بقبائح لا تليق بمثله، ورسالة عن «وارن هاستنج» فاتح الهند، يعدّها الإنجليز أحسن ما كتب اللورد «ماكولي»، بل أغلى الجواهر في تاج اللغة الإنجليزية، ومنها تعرف المهمّ من تغلغل الإنجليز في أحشاء البلاد الهندية وسلوك «هاستنج» المعيب، وحملات «إدمون بورك» عليه في مجلس العموم، ولن تفوتك مطالعة هذه الرسالة، بإمعان، ان لم يتيَّسر

لك الاطِّلاع على الرسائل الأخرى، وله- أيضاً- رسالة فذّة عن «فردريك الكبير» إمبراطور الألمان وعلاقته بـ«فولتير»، وهي من الإجادة بمكان، وله، كذلك، رسائل عن «إديسون» وكتاباته، وعن «جولد سميث»، وكلّها جديرة باطِّلاع من يريد أن يأخذ من اللغة الإنجليزية بقسط كبير.

ولقد أطلت لك عن اللورد «ماكولي» لأنني من المغرمين بقراءته، وعندي أنه يَحسُن بمَنْ كان ذا ميل إلى التمكُّن من لغة ما، أن يعجب- وإن شئت فقل (يتعشَّق)- عدداً قليلاً من كُتّابها في النثر والنظم، وقد قال أحد حكماء الإنجليز، في هذا الصدد، الكلمة الآتية، التي أنقلها لك بالنصّ الإنجليزي:

There can be no doubt that a first-hand acquaintance for or still better, a friendship with three or four of the best English writers, is worth a great deal more than a mere general survey of the whole range of our literature.

وهذه الكلمة تصدق على دراسة أيّة لغة من اللغات، ومعرفتها، وبها أختم المقال في هذا الباب، وأدعو لك بالتوفيق والنجاح.

الرسالة الحادية عشرة
الترجمة

ولدي العزيز،

إنني، فيما أبعث به إليك من هذه الرسائل، أضع، دائماً، نصب عينيّ، ما أؤمِّله لك من المستقبل الزاهر، والحياة الطيِّبة الحافلة بصالح الأعمال، وجميل المفاخر. وكثيراً ما أخلق في مخيِّلتي صورة من صورتك، في سنّ أكبر من سنّك الحاضر، فينشأ عندي شعور بما قد تحتاج إليه في ذلك السنّ من المعارف والمعلومات والاستعدادات التي تعينك على عملك، وتمهِّد لك سبل النجاح، والفوز على الأقران، فيشتدّ بي الشغف بأمرك، وأحنّ إلى عهد الشباب، وأذكر ما خسرته وما كسبته، وما كان من حقّي أن أناله، لو لم أخطئ الطريق...

وذو الشوق القديم، وإن تسلّى، مشوق حين يلقى العاشقينا

ولست ممّن يضربون في بيداء الأوهام، ويطيرون في فضاء الأحلام، فينسون ظروف بلادهم، وحالات الوسط الذي سينشأ ولدهم فيه، وينمو، ويجاهد، فيضعون له من الخطط مالا ينطبق على أحوال زمانه، وظروف مكانه، ويلقون عليه من النصائح مالا يوافق الهيئة الاجتماعية، والحالات

النفسية للأقوام الذين سيحيا بينهم، ثم يموت؛ لذا ستجدني، في كلّ ما أكتبه لك، منصرفاً إلى الوجهة العملية، في باب تربيتك العلمية، وتهذيبك العقلي، مقتصراً على ما أعتقد أنه لازم لك لتسنُّم غارب المجد، واكتساب الثناء والحمد، مع هناء الخاطر وراحة الضمير.

فأنا مقدِّر لحالة الوسط الذي ستنشأ فيه، وعارف بضرورة تفوُّقك على الأقران في استعدادات خاصّة، تقضي على معاصريك بالالتجاء إلى معارفك، والاعتماد على كفاءتك، كيفما كانت منافستهم لك، وشدّة رغبتهم في اقتناص الفوائد دونك.

فمن هذه الاستعدادات الخاصّة التي يجب أن توجِّه إليها عنايتك، التفوُّق على غيرك في إحسان الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية، وبالعكس، لأننا- يا بنيَّ، كما سبق لي القول- في بلاد أحوالها استثنائية، وظروفها غير عادية، إذ نحن في دور انتقال، يقضي علينا بالاعتماد على معارف أوروبا، من أدبية، وعلمية، وصناعية، وتجارية، وتحتِّم علينا حسن التفاهم معهم، وإيقاف قومنا على أحوالهم، ومستحدثاتهم ومنشأتهم، وإيقافهم على حاجاتنا ورغباتنا، وصِلَةُ هذه الحال هي الترجمة، فالإجادة فيها ضرورية لمن يتطلَّب العلا، وكسب الفخار، والميزة على الأقران، لا سيَّما في هذه الديار. والترجمة عمل شاقّ، والتفوُّق فيها يحتاج إلى ممارسة طويلة، ودقّة في العمل، وسلامة في الذوق، وتمكُّن من اللغات التي تطلب الترجمة منها، وإليها.

مارست الترجمة زمناً طويلاً، وسبرت غورها، وذقت حلوها ومرّها، ولو أني رزقت بمن أنار لي الطريق بمصباح خبرته، لهانَ عليَّ بعض أمرها،

فلعلّ آثار أقدامنا في رمالها، تلك الآثار التي أرسمها لك، تهدي ضالّاً إلى منهج الصواب وساحل السلامة.

لكلّ لغة من لغات العالم مميّزات عن غيرها، كما تتميَّز الشعوب لتماثلها لأخلاق المتكلِّمين بها، وطبائع المكوِّنين لأساليبها. وتوجد في كلّ واحدة تعبيرات ذات لون من ألوان المعاني، وتصوير الفكر الإنساني، تخالف، في بعض ظلالها وتجمُّع مفرداتها، ما يكون في الأخرى، ممّا هو معبِّر عن ذلك الغرض. ولهذا، كانت الترجمة- على وجه عامّ- بين كلّ لغة وأخرى- محتاجة إلى مجهود ودقّة وذوق، وهي بين اللغة العربية واللغات الأخرى أكثر صعوبة، وأحوج إلى مجهود أكبر؛ ذلك لأن اللغات الأوروبية التي تطلب الترجمة منها، وإليها، كالإنجليزية والفرنسية، لغات آريّة، لها أسلوب يخالف الأسلوب العربيّ الساميّ. ولطالما خُيِّل إليَّ أن منهاج التفكُّر، وطريقة الأقيسة العقلية، في الكلام والتعبير عن الأغراض، يتباين كثيراً بين الشرقي والغربي، ولهذا أسباب يطول شرحها، ويحتاج بيانها إلى الخوض في بسيكولوجيا الطبائع الشرقية، والطبائع الغربية.

ولكن، لا مندوحة، مطلقاً، من القول بأنه إن اختلفت التعبيرات، وتباينت أساليب العربية مع اللغات الأجنبية، فإن الفكر العامّ، والغرض المقصود من الكلام، واحد، تشترك فيه كلّ العقول؛ ولهذا يتحتّم على من يتصدّى للترجمة الطيِّبة أن يبدأ- أوَّلاً- بالتمكّن الأمكن من فهم ما يريد ترجمته، ويصح أن أقول- متوسِّعاً في العبارة- إن الفهم وحده لا يكفي، بل لابدّ من الدخول في روح الكاتب والإحساس بمثل شعوره، والتأثّر بروح غرضه، حتى يتسنّى لمن يريد ترجمته إلى لغة أخرى، أن يؤدِّي، فيما يكتبه، الجزء الأكبر من ذلك الإحساس والشعور والغرض، إن لم يكن كلّه. وهذا

نهاية الإتقان في الترجمة، وقَلَّ من يصل إليها مع الدقّة والذمّة، وبعبارة أخرى: إنك لا تجيد الترجمة وتمتاز فيها، إلّا إذا كنت قد أتقنت كلّ الإتقان اللغة التي تترجم منها، واللغة التي تنقل إليها، وأكثر ما يعرض عليك، في مستقبلك من هذا العمل، الترجمة من اللغات الأوروبية (الإنجليزية والفرنسية، بنوع خاصّ) إلى لغتك العربية، فمتى استطعت أن تكون مجيداً للعربية متقناً لها واسع المادّة فيها، سَهُلَت عليك الترجمة؛ لأن سعة مادّتك، وسهولة التعبير، وسياسة الألفاظ، تليِّن لك حديد الترجمة، حتى لا تشعر بما فيه من غضاضة. أما إذا دعيت للترجمة من العربية إلى غيرها فأوَّل ما يجب عليك أن تنتقل، بعقلك وتصوُّرك، إلى اللغة التي تترجم لها. لا تنقل جملة فجملة، بل افهم الغرض الصحيح في العربية، وانقل هذا الغرض، بحذافيره، إلى اللغة الأخرى، بالأسلوب والتعابير والألفاظ، حتى لا يشم قارؤها، من أهل تلك اللغة، رائحة الأصل المنقول عنه.

ولشديد رغبتي في أن أسهِّل لك طريق الترجمة الوعر أذكر لك بعض الإرشادات، التي أظنّها مفيدة في هذا الباب، بقدر ما وصلت إليه خبرتي الناقصة، وهمّتي العاجزة، فأقول: إن الترجمة على أنواع شتّى؛ فما يصلح، بل يلزم في نوع من الأنواع، لا يصحّ ولا يتحتّم في نوع آخر.

فالترجمة إمّا علمية، أو أدبية، أو إجمالية، أو شفوية: فالترجمة العلمية هي، مثلاً، من قبيل ترجمة كتاب في فَنّ من الفنون، كالطبّ أو الهندسة أو البيداغوجيا أو القوانين، وما شابه ذلك، وجرى مجراه من علوم الاقتصاد السياسي والبسيكولوجيا (علم النفس) والسوسيولوجيا (علم الاجتماع). ومن هذا النوع، أيضاً- وإن لم يسمّى بـ(العلم)- ترجمة الأوراق السياسية، والمخابرات الدولية، والتقارير الدولية، والتقارير

القنصلية، والمذكّرات: المالية، والقضائية، ممّا تجب فيه الدقّة وملاحظة الأصل، لأن مجرَّد اختلاف لفظٍ عن لفظ- وإن تشابها في المعنى- يزحزح العبارة المترجَمة عن الغرض الذي وُضِعت له، بقصد وتحديد.

وممّا تجب ملاحظته على المترجم، في هذا الصدد، أنه قلّ أن توجد كلمتان مترادفتان من ألفاظ المعاني- لا المسمّيات- تؤدّي معنىً واحداً، بالضبط؛ إذ لابدّ، هناك، من ظلّ خفيف لكلّ كلمة، لا سيّما بارتباطها بغيرها بحيث تتغيَّر ظلال المعاني ومرامي الأغراض الكلامية تبعاً لاختيار اللفظ المرادف، وما يجاوره من الألفاظ الأخرى؛ لذا كانت الترجمة، في هذا النوع، من أصعب الأمور، ولا تلين عريكتها للمترجم إلا بعد مزاولة طويلة، وخبرة تامّة بمعاني الأصل الذي يترجم منه، وسعة اطِّلاع على نوع اللغة التي وضع فيها ذلك الأصل، لأن لكل فنّ لغة خاصّة به، فلغة القوانين والأنظمة الإدارية غير لغة السياسة.. وهلمَّ جرّا.

ونصيحتي لمن يزاول ترجمة من هذا القبيل أن يعالج ألفاظ اللغة التي يترجم إليها، ويدقِّق في اختيارها، ويقلِّب التراكيب المختلفة على أشكالها، حتى يتمّ له المراد، ويصيب شاكلة الصواب، ويقتنع ضميره، وترتاح ذمّتِه إلى ما اختاره للتعبير عن غرض الكاتب، تماماً.

وممّا يزيد صعوبة الترجمة إلى العربية أن لغتنا- على سعتها وكثرة ألفاظها وتعدُّد مترادفاتها، ولين عودها للتعبير عن الأغراض المختلفة- قد وقف بها أهلها عند درجة من الجمود على القديم من أساليبها، حتى ضاقت، في ظاهرها، عن احتمال الإفصاح عن الأساليب العلمية،

والإشارات الاجتماعية، والمناحي السياسية، التي اصطلح عليها كتّاب العصر الحاضر. هذا فيما يختصّ بالتراكيب والأساليب، فكيف مع وجود النقص الظاهر، في اللغة العربية، من الألفاظ العلمية التي تؤدّي تمام المراد من المنشآت الحديثة والآلات العلمية والمسمّيات الفنّيّة؟ وقد انقسم أهل العربية إلى أحزاب في كيفية إصلاح هذا الخلل، فقال فريق بصقل الكلمات الأعجمية وتحويرها بعض التحوير الحرفيّ لتناسب اللهجة العربية، والاعتماد على هذه الكلمات، وإدخالها في المعجمات، كما كان يفعل أسلافنا، وهذا رأي أنصار التقدّم العصري والنموّ الطبيعي. وقال فريق بنحت أو اشتقاق أو اختيار ألفاظ غربية محضة، والاتِّفاق عليها بجماعة من أئمّة اللغة، واتِّخاذ هذه الكلمات العربية الأصل للدلالة على الاصطلاحات الحديثة، وبذلك لا يدخل على اللغة غريب عنها، نافر منها، وأنصار هذا الرأي هم المحافظون على القديم. ووثب فريق آخر إلى التطرُّف والقول بترك العربية واتِّخاذ لغة التكلُّم العصرية التي يسمّونها العامّيّة (وهذه التسمية متساهل فيها) لغة الكتابة والعلوم والتعليم. ولكلّ مذهب من هذه المذاهب الثلاثة أنصار يؤيِّدونه، ولكلّ فريق حجّته ونغمته، ولو كنت أكتب هذه الرسائل بقصد البحث في موضوع مهمّ كهذا، لتحتَّمَ عليَّ إبداء رأي، لكني إنما أكتبها بقصد إرشادك إلى الوسائل والمعارف والتربية التي تربّي خلقك، وتهذّب نفسك، وتكون عقلك للفوز في معترك الحياة، إزاء ما هو موجود، لا ما يمكن أن يكوِّن، أو يحسُن أن يكون؛ ولهذا لا أحبّ لك أن تدخل في غمار مناقشات ومجادلات، لأن المهمّ عندي هو أن تتفوَّق على غيرك، بكلّ ما تستطيع أن تتفوَّق به، فإن كانت نهاية الفخر وتسنُّم غارب المجد، بالإجادة في كتابة العربية الفصحى

والتعبير بها عن أغراضك، فخذ منها بأوفر قسط. وإن كان من الفخار، في زمانكم، النبوغ في الكتابة والترجمة بلغة التكلُّم العصرية، فبرِّز فيها على الأقران، وليكن سلاحك كسلاح أندادك، ولكلّ زمان أحكام، وقد قيل: «علِّموا أولادكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».

ولنعُدْ إلى النصف الثاني من الترجمة وهو الترجمة الأدبية، والذي أريده من هذا النوع من هذا النوع هو ما يكون على مثال ترجمة القصص الخيالية، والروايات الأدبية أو التاريخية، أو فصل من فصول كتاب في الأخلاق أو التربية أو العادات أو السياحات، وما أشبه ذلك، ممّا يراد به ترجمة المقصود من مجموع الموضوع، دون التقيد بالنصوص أو المحافظة على معاني ألفاظ أو جُمل خاصّة. والمهمّ، في هذا النوع، الاكتفاء بغرض الكاتب الأصلي، فإن كان يدعو إلى فضيلة، أو يحذِّر من رزيلة، بعبارات قويّة وأسلوب منطقي، فلتكن ترجمة المراد منه، كذلك، بلغة تناسب المقام، وبمعانٍ تؤدّي غرض الكاتب.

ومن هذا النوع ترجمة الشعر والحِكَم النثرية وما يجري مجرى ذلك من الكلام البليغ والشذرات الممتازة بدقّة الصناعة، وحلاوة اللفظ. وفي هذا يتحتّم عليك- إن كنت تعرِّب شيئاً من هذا النوع- أن لا تتخيَّر الألفاظ التي تؤدّي، بالحرف، معاني الكلمات التي تترجم عنها، فإنك، إن فعلت ذلك، فلن تستطيع أن تُخرج، لمن تترجَم لهم، صورة تشابه الصورة الأولى، بل عليك أن تؤدّي المعنى الوارد في الشعر أو النثر، بعبارة عربية فصيحة مطابقة، في بلاغتها العربية، بلاغة الأصل في لغته الأجنبية. واجتهد أن تجعل له،في لغتك، رنّة في الصوت، ونغمة على السمع، تشابهان رنّته

ونغمته، في لغته، ولا يكون ذلك سهلاً عليك إلّا إذا كنت مالكاً لناصية البيان، مع شيء من العناية والاختيار اللفظي. وإنني- وإن كنت لا أحبّ أن أضرب لك الأمثال، كما قلت، لأنني عندك غير مطالب بالدليل على صحّة ما أقول- أخرج عن مألوف ذلك فأضرب لك، هنا، مثلاً صغيراً من تخيُّر اللفظ ونغمة القول.

من الكلمات الشعرية لــ«ملتون» قوله:

The mind in its own place,

Can make a hell of heaven and a heaven of hell

فلو قلت «العقل، في مكانه، يجعل من النار جنّةً ومن الجنّة ناراً» فهي ترجمة صحيحة لا بأس بها، لكنك لو وضعت مكان النار «الجحيم» ومكان الجنّة «النعيم» وقلت «العقل، في مكانه، يخلق من الجحيم نعيماً، ومن النعيم جحيماً» لكانت عبارة الترجمة أفصح لفظاً، وأقرب، إلى الأصل، نغمةً ورنّةً.

ومع هذه الترجمة- أيضاً- قد يُشكِل على بني قومك المراد من هذا التعبير، فإذا أنت خرجت عن التقيُّد باللفظ، وقلت: «سعادة الإنسان وشقاؤه في عقله» أو «السعادة والشقاء معنيان، يرجع التقدير فيهما إلى العقل» فإنك تكون قد ترجمت الشعر الإنجليزي، وشرحته، في آن واحد.

ومن هذا النوع، في الترجمة الأدبية، ترجمة الأمثال والحِكَم، شعراً كان أم نثراً، وترجمة الكلمات المأثورة. ففي هذه يجمُل كثيراً، بالمترجم، الحصول على ما يقارب الأصل في اللغة المترجَم إليها، فيأتي به منثوراً أو منظوماً أو

مأثوراً، ويكون ذلك العمل بمثابة الحِلية والتجمُّل في الترجمة، مثل ذلك ترجمة العبارة الإنجليزية الآتية:

He who has a thousand friends,

Has not one to spare.

And he who has an enemy,

Meets him everywere.

ببيت من الشعر العربي وهو:

وما بكثيرٍ ألف خِلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عدوّاً واحداً لكثيرُ

فلو ترجمت العبارة الإنجليزية هكذا، مثلاً: «من كان له ألف صديق لا يهون عليه التفريط في واحد منهم، ومن كان له عدوّ واحد يلقاه في كل طريق»، لما كان هذا خطأ، بل هو غاية الصواب، لكنك إذا جئت، بدل تلك العبارة الطويلة، بذلك البيت من الشعر، على نغمته وطلاوته، تكون قد برهنت على سلامة ذوق، ولطف اختيار، وسعة اطِّلاع، لأنه، في مثل هذه الترجمة الأدبية، لا يُطلَب منك التدقيق الذي يُطلَب في الترجمة العلمية أو في المسائل السياسية أو القانونية، وما يشابهها.

خذ مثلاً آخر: يستعمل الأجانب الكلمة اللاتينية الآتية استعمالاً شائعاً وهي «Quid pro quo» وتعريبها «شيء في مقابل شيء» «واحدة بواحدة»، «دقّة بدقّة»، فإذا جئت لتعريبها في خلال كلام عامّ، فأوَّل ما يلزمك هو تفهُّم المقام الذي وُضِعت فيه، فإن كان ورودها في مقابل الإساءة بالإساءة فاستعمل عبارات «دقّة بدقّة»، أو «واحدة بواحدة»، وإن كانت في مقام

مقابلة الجميل بمثله، فيجب أن تترجمها بعبارة: «ما جزاء الإحسان إلّا الإحسان» أو ما شابه ذلك.

فمن هذا، يتَّضِح لك- يا بنيَّ- أن الترجمة الأدبية تحتاج إلى الرويّة والإدراك وسلامة الذوق.

أمّا الترجمة الإجمالية فهي من قبيل نقل الملخَّصات إلى لغة أخرى، وهي على درجات بنسبة ما يراد تلخيصه؛ فقد يكون المطلوب تلخيص تقرير طويل أو كتاب صغير، في رسالة موجزة، وقد يكون المطلوب وضع ملخَّص لا يقلّ في قيمته وتأدية الغرض المقصود منه، عن الأصل المطوَّل، وقد يكون الغرض مجرَّد تأدية فكرة عامّة عن بحث كبير ومطلب عويص. ففي جميع هذه الأحوال، تلاحظ الرغبة والفكرة الأساسية، وعلى مقتضاها تكون الترجمة من حيث الدقّة والطول والقِصَر، وفي كلّ هذا يكون المرجع هو الذوق وحسن الاختيار.

وبالطبع، يجب أن تلاحظ، في هذه الترجمة الإجمالية، الفكرة الداعية إليها، فإن كنت موظَّفاً، مثلاً، أو تابعاً، أو مشتركاً في عمل عامّ، كعضو في لجنة أو جمعية، وكُلِّفْتَ أن تضع ملخَّصاً بالعربية لكتاب أو لتقرير باللغة الإنجليزية، يجب عليك، في هذه الحال، أن تتلقّى أمر رئيسك، أو تتَّفق على القاعدة المطلوبة مع زملائك، حتى لا تخطئ في تقدير المطلوب من الترجمة الإجمالية، لكي يجيء الملخَّص الذي تضعه باللغة العربية، على قدر المطلوب منك، لا أقلّ ولا أكثر. لكن ما يزيدك حسناً ومنزلةً عند رئيسك والعاملين معك، أن تكون موضع ثقة وحسن ظَنّ، بحيث لا يجرؤ

هذا أو أولئك، على إلقاء تعليمات إليك، ويكون الأمر، في تقدير التلخيص، متروكاً إلى ذوقك السليم، وبحيث لا يكون ثمة خلاف في تقدير ما ارتأيت أنت تقديره. يجب عليك- يا بنيَّ- أن تكون من المنزلة، في اللغة الأجنبية واللغة العربية، ومن المنزلة في حسن الإدراك وتصوير الغرض المقصود من هذا الصنف من الترجمة، بحيث يُعتَرَف لك بالأفضلية على سواك، وبالثقة التامّة في عملك وذوقك وكفاءتك. وحين تحصل على هذه الدرجة (وليس ذلك بالأمر الهيِّن) يصبح في مقدورك أن تملي إرادتك على رفقائك وزملائك، بل على رؤسائك (بأدب ولطف). وهذه هي المنزلة التي أريدها لك وأحثّك على الوصول إليها، في مثل هذا الموقف، إذا قَدَّر الله لك الوجود فيه.

أمّا الترجمة الشفوية فهي أن يُطلَب منك نقل عبارة، يلقيها خطيب أجنبي، إلى لغة قومك، أو تكون واسطة الحديث بين جماعة من الأجانب وأبناء لغتك، وفي كلا الحالين يجب التنبُّه واليقظة والإسراع في فهم المراد من اللغة الأجنبية ونقله إلى العربية (أو بالعكس من ذلك)، بقدر ما يمكن من الدقّة والضبط وحُسْن التصوير. في هذا النوع من الترجمة لا يمكن، في الغالب، المحافظة على الأصل أو التعريب اللفظي؛ ولهذا يلزمك أن تمرِّن نفسك على اختصار المهمّ من الكلام، فتقول «إن المتكلِّم يريد أن يُفهِم سامعيه كيت وكيت»، وتتحمّل على نفسك تَبعة الرأي الذي تلقيه، لأنك، في واقع الأمر، مسؤول عن عباراتك؛ لأن الطرف الذي تنقل إليه القول لا يفهم لغة الطرف الثاني.

أمّا وقد أشرت إلى ما تتحمَّله من تبعة الترجمة، فإنني أذكِّرك بأن أوَّل

واجبات المترجم الصدقُ والإخلاصُ وتأدية واجبه بكلِّ أمانة وذمّة. فسواء أكانت الترجمة علمية أم أدبية أم إجمالية أم شفوية، فأوَّل ما تضعه نصب عينيك الأمانة في النقل، وأن تجعل ضميرك رقيباً عليك حتى تكون شريفاً في عملك، وموضع ثقة في قومك. وبهذه الصفات تنجح في حياتك، وتحسُن سمعتك، ويعلو صيتك، ويرتفع ذكرك.

والله المسؤول أن يسدِّد خطواتك، ويوفِّقك إلى خدمة لغتك العربية بما تنقله إليها من المعارف والعلوم الأجنبية. وأستودعك الله إلى رسالة أخرى.

الرسالة الثانية عشر
التاريخ

ولدي العزيز،

من العلوم التي أحبّ لك أن تميل إليها، وتنصرف، بشيء من الرغبة الخالصة نحوها، علم التاريخ. وما أدري لماذا أنا أحبّ لك الاشتغال بهذا الفنّ، لا بوصفه حرفة؛ فهو ليس بالصناعة إلّا إذا تقدَّمت الأمّة المصرية والأمم العربية، بوجه عامّ، تقدُّماً كبيراً في ميدان العلوم والمعارف، بحيث يمكن للمؤرِّخ أن يتَّخذ التأليف في هذا الفنّ حرفة. وفي أوروبا كثيرون من أهل الفضل يعيشون من ثمن مؤلَّفاتهم، سواء في فنّ التاريخ وغيره.

قلت: إنني لا أدري لماذا أحبّ لك الانصراف، بشيء من الرغبة إلى فنّ التاريخ، و- ربَّما- كان مرجع ذلك ميلي الخاصّ إلى هذا الفن، أو لأنني، مع هذا، أرى فيه فوائد جليلة تخفى على الكثيرين ممّن لم يدرسوه أو لم يقرؤوه بالروح التي يجب أن يُدرَس بها، ويُقرَأ.

التاريخ من ألذّ العلوم والفنون، إذ هو قصص الأمم الغابرة، حياة الرجال النوابغ، أمثلة من الفضل والفضائل، صورة من الأخلاق البشرية في مختلف العصور، موعظة الأفراد والأمم، أو كما وصفه أحد كُتّاب

الإنجليز، فقال:«التاريخ تدريس الفلسفة بضرب الأمثال – History is philosophy teaching by example».

التاريخ- يا بنيَّ- من الفنون التي تبعث فينا الرغبة إلى التحلّي بالفضائل؛ لما نقرؤه من عظماء الرجال الذين امتازوا بالصفات العالية الفاضلة مما كان سبباً في تخليد أسمائهم ونقشها على أحجار الأبديّة.

والتاريخ من الفنون التي تبعث فينا، بل تغذّي عاطفة التطلُّع إلى المجد وارتقاء سنام العلياء تشبُّهاً بأولئك الرجال الذين نقرأ عنهم، ونميل بجوانحنا إلى ماضيهم. وأذكر كلمة الشاعر الأميركي «لونجفلو»: «إن تاريخ حياة الرجال العظام تؤكّد لنا أن في إمكاننا أن نجعل حياتنا عظيمة مثل حياتهم» [1]. وإني ألْفِت نظرك، في هذا الصدد، إلى الخطاب الثاني من خطابات اللورد «تشسترفيلد» لولده، فقد ذكر له، في أهمّيّة دراسة تاريخ الرومان والاعتناء به، ما يجدر بك مطالعته في أصله.

والتاريخ، كما يُدَرَّس في المدارس المصرية، جافّ الطبع، جامد العبارة، وقليل الفائدة، لأن الخطّة التي جروا عليها، في وضع عصور التاريخ الكبيرة، في كتب موجزة صغيرة، ومادّة قليلة، قد جعل تدريس التاريخ لطلّاب العلم، في المدارس، كأنه فرع من الفروع المختلفة للتعليم، في حين أنه يجب أن يكون تلقّى هذا العلم، والحثّ على الشغف به، وتقدير قيمته العلمية، وأثره في التربية الأخلاقية، وأثره، كذلك، في تفهُّم السياسة العامّة،

وفلسفة الاجتماع، على طريقة قائمة بذاتها. أضف إلى هذا أن التاريخ، كما هو الآن في الكتب العربية المتداولة بيننا، سيِّئ الوضع، سيِّئ الأسلوب، فمنه ما هو موضوع على الطريقة القديمة، من الإسناد وتبويب الحوادث بالأعوام، كتاريخ الطبري، وتاريخ ابن الأثير، وما جرى مجراهما، ومنها ما هو مشوَّش العبارة مملوء بالأغلاط والمبالغات والأوهام، ومنها ما خلط فيه واضعوه الأدب بالتاريخ، والحقائق بالأكاذيب، إلى غير ذلك من التطويل المملّ. وإذا نظرنا إلى الكتب الحديثة المدرسية وجدنا أن أكثرها مقتضَب مُبَوَّب مملوء بأسماء الملوك والحكّام والأمراء وتواريخ حكمهم ومدّة دولتهم، كأن التاريخ عبارة عن نظريّة هندسيّة، أو معادلة جبريّة! مع أن التاريخ قصص وأخبار ومشاهدات وملاحظات بحيث يجب أن توجَّه العناية إلى تدريسه بطريقة خلّابة جذّابة، وحبَّذا لو يُقتَصَر، في كلّ سنة من السنوات المدرسية، على عصر من العصور، أو دولة من الدول.

وعندي- بالنسبة إلى شخصك، يا بنيَّ- بعض ملاحظات وآراء أحبّ أن أبعث بها إليك في هذه الرسالة، لعلّها تفيدك، أو تؤدّي إلى حثّ نفسك للاغتراف من بحر هذا الفَنّ الجليل، بحيث تكون لك منه فائدة ولذّة، في آن واحد.

قلت لك إن التاريخ قصص الغابرين، فهو أشبه بالروايات الخيالية التي تقرؤها، وقد وصفه أحد الكتاب الإنجليز فقال: «التاريخ يبتدئ قصّة، وينتهي بحثاً»، وهذه هي كلمته الإنجليزية:

«History begins in novel and ends in essay».

ومقدار الشغف بمطالعة الروايات، وحبّ قراءة تواريخ الأبطال والرجال

العظماء، يمكن أن يُحَوَّلا لدراسة التاريخ. أمّا وضعه على طريقة الكتب المدرسية الصغيرة: تاريخ اليونان، تاريخ الرومان، تاريخ العرب، تاريخ المصريين، مع جداول بأسماء الملوك والأُسَر، وما أشبه ذلك، مضافاً إلى سنِيّ الحُكْم وسِنّي المواليد والوَفَيات.. إلى غير ذلك من البيانات، فإنه متعب جدّاً، ولا تأتي منه فائدة مطلقاً، بل- ربَّما- كان ضرره أكثر من نفعه؛ لأنه عبارة عن حشو الدماغ، وإجهاد الذاكرة بمجموعة أرقام وأسماء، لا يبقى منها، بعد تمضية الامتحان، لا قليل ولا كثير.

وعندي أنه يجب أن يُبَدأ في دراسة التاريخ بفترات من الزمن حول أسماء الرجال الذين هم سبب التاريخ، أو الذين «صنعوا» التاريخ، كما يقول الإنجليز «Made history»، ثم تنشأ حول كلّ رجل من أولئك الرجال العظام، من ملوك، وقياصرة، وقوّاد، وغزاة وفاتحين، وحكّام سياسيين.. هالة من التاريخ العامّ، تنمو مع الشخص، وتجمع في جوفها كلّ ما يحيط به ويرتبط بمركزه وزمانه ومكانه وعمله، من تواريخ البلدان الأخرى، ثم أهل زمانه وأحوالهم: السياسية، والدينية، والاجتماعية. فحبّذا لو أُخِذت مجموعة من عظماء الرجال، مثل إسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وعمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، ونابوليون بونابرت، ومحمد علي باشا...، ثم خُصِّص لحياة كلّ رجل من هؤلاء الرجال دراسة خاصّة مفصَّلة تبدأ بقصص وروايات عن نشأة أولئك الرجال، مع حكايات مختصرة عن آبائهم وأقوامهم وأقاليمهم وأيّام فتوّتهم، وتكوين رغبة ما قاموا به في أدمغتهم، ثم توضع لهم صور مختلفة تمثّل كلّ فرد منهم في دور من أدوار حياته، وكذلك تُعَدّ خرائط جغرافية للبلاد التي نشأوا فيها، والتي

قاموا بأعمالهم العظيمة في جوانبها: فإسكندر المقدوني تُرسَم له خريطة عن اليونان وجُزُرها وآسيا الصغرى وبلاد العجم والهند ومصر، وعمرو بن العاص تُرسَم له خريطة عن جزيرة العرب ومشارف الشام ومصر، وتُرسَم لمثل نابوليون بونابرت خريطة لفرنسا وإيطاليا والنمسا والجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسِّط، يجمع مصر وسورية. وهكذا، وهكذا، ثم يَحْسُن أن تُرسَم على هذه الخرائط، بخطوط حمراء أو صفراء، الطرق التي سلكوها في غزواتهم، وبعبارة موجزة: تُصَوَّر لهم حياة كلّ رجل من أولئك الرجال العظام رواية لذيذة، يقبل عليها الطلّاب بشغف زائد، وتعلق في أذهانهم، بحيث تكون جزءاً من حياتهم.

ثم متى رسخت عندهم تلك الفترات التاريخ، يؤخذ في أسباب ربطها بالتاريخ العامّ، فتذكر أنه في هذا الوقت الذي كان يجري فيه كذا وكذا، في تاريخ الرجل الذي تتكلَّم عنه، كانت الأحوال في الممالك الأخرى، هنا أو هناك، على شكل كذا وكذا. ولنضرب مثلاً بتاريخ يوضع لحياة عمرو بن العاص، وأثره في تاريخ الإسلام والشرق:

لدراسة تاريخ هذا الرجل يجب أن يوضع له بحث خاصّ في نشأته الأولى في الجاهلية، وماذا عرف عنه، ومع هذا شيء عن العرب في الجاهلية وأشعارهم وأخلاقهم ومواسمهم وأديانهم، ثم نشأة عمرو في الإسلام، والفتوحات الإسلامية العامّة حتى زمن عمر بن الخطاب، ويُذكَر عنه شيء عَرَضاً، ثم يُبحَث في: هل زار عمرو بن العاصر مصر قبل فتحها؟، وكيف عرفها؟ وماذا كانت غايته من الزيارة الأولى؟، وما الأسباب التي دعته لتحريض عمر بن الخطاب على فتح مصر؟، وهل كان واقفاً على حقيقة أحوال مصر السياسية وأحوالها الاجتماعية، وعلى الخلافات الحزبية

والدينية فيها؟، ثم كيف كانت حالة مصر الجغرافية وحالتها الاقتصادية في ذلك الوقت؟.. وهلمّ جرّا، وعلى هذه الطريقة يلمّ الطالب بتاريخ العرب ونشأة الإسلام، والخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية، وفتح مصر، وما كانت عليه الأحوال فيها من ظلم الرومان لأهلها، وخلافاتهم: الدينية، والحزبية التي طالما كانت تؤدّي إلى إراقة الدماء، وما يتبع ذلك من حال العلم في مصر في مدّة الرومان، وأخبار مكتبة الإسكندرية والسرابيوم، وما دار حول حرق تلك المكتبة من المباحث والمجادلات، فلا تنقضي هذه الفترة حتى يكون الطالب قد وعى تاريخ عصر من العصور التي يرتبط بها تاريخ العالم، والذي يهمّ الشرقي، والمصري، والمسلم، بنوع خاصّ).

كلّ ما أوضحته لك في الطريقة التي يحسُن بها دراسة التاريخ من المثل الذي ضربته لتاريخ عمرو بن العاص، يمكن، بالسهولة، اتّباعه في تواريخ الرجال العظام الذين ذكرت بعض أسمائهم، بل- ربَّما- كان تاريخ بعضهم أكثر جلاءً ووضوحاً من تاريخ عمرو بن العاص، لوجود المستندات والكتب المفصّلة لأعمالهم، سواء أكان ذلك لقرب زمانهم كنابوليون بونابرت، أو لمصادفة وجود مؤلَّفات وُضِعت مفصَّلةً عن زمانهم كيوليوس قيصر مثلاً. ومن المباحث التاريخية التي تدخل في هذا النوع من الأسلوب التاريخي الشائق رسائل اللورد ماكولي «Essays»، عن الرجال العظام الذين كتب عنهم، مثل كلايف، ووران هاستنج، وميرابو، وفردريك الكبير، وغيرهم.

وهناك طريقة آخرى في وضع التاريخ، وجعله لذيذاً مرغوباً في دراسته ومطالعته، هي طريقة اختيار نوع من أنواع الحوادث، مثل المواقع الفاصلة في تاريخ الجنس البشري، وأعني بالمواقع الفاصلة، الوقائع الحربية التي لو تمَّ فيها النصر للفريق الذي انهزم وفشل، دون الفريق الفائز، لتغيَّرت صحيفة الكون، وتاريخ الجنس البشري إلى فترة طويلة من الزمن. وأضرب لك، من هذا النوع، مثلاً، موقعة «تورس»، في فرنسا، التي فاز فيها «شارل مارتل» على عبدالرحمن الفاتح؛ فلو أن المسلمين فازوا في هذه الموقعة الفاصلة، لوقعت فرنسا تحت أقدامهم ولثبَّتوا دعائم المملكة الإسلامية العربية، في قلب أوروبا، إلى عدّة قرون، ولما كان من السهل على أوروبا أن تُخرِج الإسلام من إسبانيا في الوقت الذي حصل فيه، وكذلك من المواقع الفاصلة في التاريخ استيلاء محمد الثاني على الآستانة. فإذا وُضِع كتاب عربي، موضوعه «المواقع الفاصلة»، فيما له علاقة بالتاريخ الإسلامي، لكان ذلك من المباحث التاريخية الجليلة التي تحبِّب الطالب في علم التاريخ، وتجعله ذا فوائد أدبية، واجتماعية، وسياسية، وقومية.

وممّا تجب العناية به، في دراسة التاريخ والاشتغال به، تمحيص المستندات والمصادر التي اعتمد الكاتب المؤرِّخ عليها، وتقدير ما لتلك المستندات والمصادر من القيمة الحقيقية، ولم أرَ من المؤرِّخين مَنْ مَحَّصَ مصادر مؤلَّفه، وعَرَضها على القرّاء بنقد صحيح، ليكون القارئ على بصيرة بقيمة ما يُسنَد إلى تلك المصادر، مثل اللورد روزبري، في كتابه العظيم عن نابوليون بونابرت وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلين)؛ فإنه بدأ بذكر

المصادر التي اعتمد عليها، وهم أولئك القوّاد والضبّاط ورجال حاشية الإمبراطور المنفيّ، الذين كتبوا عنه، ونقلوا أقواله وأحاديثه وتصريحاته وماكان بينه وبين حاكم الجزيرة من المشادّة والخلاف والمشاكل، ثم وصف منزلة كلّ كاتب منهم لدى الامبراطور، وكيف كان من الممكن أن يكون موضع سره، وإلى أيّ حَدّ يصحّ الاعتماد على رواية للكاتب، في موقف من المواقف، أو مسألة من المسائل، وماهو ماضي ذلك الكاتب، وما صفاته وأخلاقه، وما آراؤه السياسية والحزبية، كيما تقدر قيمة الثقة التي يحقّ له التمتُّع بها. وعلى هذه الطريقة وضع اللورد روزبري قاعدة جديدة في كتابة التاريخ، وقد عوَّلت- إن شاء الله- أن أسلك هذه الطريقة في مقدّمة الكتاب الذي وضعته عن تاريخ الحملة الفرنساوية ونابوليون في مصر، إذ يتحتَّم أن يقف القارئ على القيمة الحقيقية لأكبر المصادر العربية في تلك الفترة التاريخية، وهو كتاب الشيخ عبدالرحمن الجبرتي، وإلى أيّ حَدّ يمكن الثقة بروايته، وكيف كانت علاقة ذلك المؤرِّخ بالمماليك أوَّلاً، وبالفرنساويين ثانياً، وما هي منزلته في درجة التحقيق وصدق الرواية، وما يصحّ الاعتماد فيه على قوله، وما لا يصحّ منه، في الظروف المختلفة، ثم مقارنة أقوال ذلك المصدر العربي بالمصدر العربي الآخر، وهو رسالة المعلِّم نقولا الترك، وما الفارق بينهما من وجهة نظر كلٍّ من الشيخ الأزهري المسلم، والمسيحي اللبناني، بخصوص تلك الحوادث والحالة السياسية، ويتبع ذلك مقابلة هذين المصدرَيْن العربيَّيْن بالمصادر الفرنسية: الرسمية، وغير الرسمية.

وعندي أنه يَحْسُن بك أن توجِّه عنايتك إلى التاريخ الحديث، ففيه الفائدة، وفيه اللذّة العلمية؛ لأن مصادره أقرب إلى التحقيق، ومواده أكثر انطباقاً

على الشؤون الحاضرة، ودروسه أشدّ التصاقاً، وأقرب شبهاً بما يحيط بك، (وسيحيط)، في مستقبل أيّامك، من الحوادث والظروف والمناسبات السياسية والمناسبات الاجتماعية؛ لهذا أحثُّك على زيادة الاطِّلاع على المؤلَّفات في التاريخ الحديث. لكن، لا يمنعك ذلك من الإلمام الصحيح بالمهمّ من التاريخ القديم.

واعْلَم أن فنّ التاريخ ليس قاصراً على التاريخ السياسي والحربي للأمم؛ وأعني بذلك تاريخ ملوكها وأمرائها وأحزابها وحروبها وغزواتها، بل هناك ما هو أهمّ من هذا، وهو تاريخ نموّها وارتقائها وتكوينها، ورقيّ آدابها وعلومها. وأحسن ما يقال، في هذا الصدد، ما كتبه المؤرِّخ الجليل نابغة النوابغ، في هذا المضمار، «هنري توماس باكل - Henry Thomas Buckle» في كتابه المشهور في عالم الأدب والتاريخ والسياسة، واسمه «تاريخ المدنية»)، ففي المقدِّمة، ذكر هذا المؤلِّف العظيم أن المصادر التاريخية لأخبار الأمم، من حربية، وسياسية، واجتماعية، كثيرة متعدِّدة واسعة، وفيها ما هو مرتب ومُنَظَّم، لكن النظر إليها، من وجهة رقيّ الإنسان، وارتقاء الجنس البشري، ونهضة الشعوب واعتلائها، وتدهور الأمم وسقوطها، لم يوفِّهِ المؤرِّخون حقَّه.

ففنّ التاريخ- إذن- ليس مجرَّد أخبار وقصص ومستندات وروايات، بل هو بحث فنّي منطقي، يجب أن يكون المتعرِّض للتأليف فيه واسعَ المادّة،

كبير الاطِّلاع، لا على كتب التاريخ ومصادر الأخبار المتنوِّعة فحسب، بل لابدَّ له من معرفة العلوم: الأدبية، والفلسفية، والاجتماعية، والطبيعية، لتصوير حال الأمم التي يكتب عنها، وعلاقتها بالظروف والأخلاق والآداب، بل المحيطات الطبيعية بها، من جَوٍّ حارٍّ أو بارد أو معتدل، ومن أنهار ووديان وجبال وهضاب، فإن لكلّ هذه الأمور الطبيعية تأثيراً عظيماً على أعمال الأمم وأفكارها ومعتقداتها.

واعْلَم- يا بنيَّ- أن هناك فنوناً تاريخية لعدّة فروع من المعارف الإنسانية؛ فللآداب القومية تاريخ، وللأديان تاريخ، وللعلوم الطبيعية تاريخ، وللاكتشافات والمخترعات تاريخ، وللتشريع والقوانين الوضعية تاريخ، وللفلسفة تاريخ.. وهلمّ جَرّا. وفي هذه المباحث العويصة كتب ممتعة باللغات الأوروبية، وإني واثق من أنك متى ارتقت مداركك، وشَغُفَت نفسك بحبّ التثقيف والتهذيب، ستقبل على دراسة هذه المباحث العويصة اللذيذة، وسأكتب لك، في رسالة أخرى، عن ضرورة الانكباب على العلم والاطّلاع، بعد خروجك من المدرسة.

وكنت أُحبّ أن أذكر لك شيئاً عن الكتب التاريخية التي أرجو أن لا يفوتك الاطِّلاع عليها، مثل ما كَتَبه ابن خلدون، وابن مسكويه، وجبون، ماكولي، لكني رأيت أن أترك هذا لذوقك وتقديرك، و- ربَّما- لاحت لي فرصة أخرى، فأكتب لك عن الكتب التاريخية الجليلة الشأن، وقد يكون هذا في الوقت الذي أتأكَّد فيه من ميلك إلى هذا الفنّ الجليل.

وأسأل الله أن يمنِّعك بالصحّة والعافية، ويمتِّعني برؤيتك رجلاً كاملاً فاضلاً، يفخر بك أبوك، كما يفخر بك وطنك. وسأكتب لك قريباً.

الرسالة الثالثة عشرة
العلوم الطبيعية

ولدي العزيز،

لم أكتب لك شيئاً عن أهمّ العلوم وأنفعها في الحياة، وأعني بها العلوم الطبيعية التي تطلق عليها كلمة «Science» باللغات الأجنبية. هذه هي العلوم التي يدور عليها اليوم محور العالم أجمع، وهي العلوم التي حلَّت في المنزلة الأولى، وأصبح كلّ ما سواها، من المعارف، في الدرجة الثانية، بلا نزاع.

والدليل على ذلك أن المعارف والعلوم الأدبية كادت أن تقف (إن لم تكن قد وقفت فعلاً)، في حين أن هذه العلوم الطبيعية آخذة في التقدُّم والارتقاء، ولا تزال سائرة في طريق النمو. وليس من المعقول أنها ستقف عند حَدّ، لأن الطبيعة لا حَدّ لها، ولا نهاية لأسرارها؛ فلذلك أَلْفِتُ نظرك- بنوع خاصّ- إلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية وكلّ ما يتفرَّع منها، وما ينتسب إليها.

أمّا العلوم الطبيعية التي أذكر أننا درسناها في المدارس المصرية، فهي علم الطبيعة «Physics»، وعلم الكيمياء «Chemistry»، وعلم النباتات

«Botany»، وشيء من علم الصحة «Hygiene». لكن العلوم الطبيعية ليست قاصرة على هذه، بل هي كلّ المعارف التي ترتبط بالطبيعة وبنظام الكون، وكلّ ما ينطوي تحت ذلك، مثل علم الاحياء، «Biology»، وعلم النفس «Psychology» والعلوم الطبيعية، على اختلاف فروعها ومسمّياتها، وعلم الفلك «Astronomy»، وعلم طبقات الأرض «Geology»، وعلم الحيوان «Zoology»، وعشرات من العلوم الحديثة التي تختصّ بالفنون والصناعات المختلفة والأعمال المتعدِّدة.

فنحن، الآن- يا بنيَّ- نعيش في عالم، كلّه مبنيّ على هذه العلوم الطبيعية؛ فأينما كنّا، وأينما وُجِدنا، وكيفما كان عملنا في الحياة، لابدَّ لنا من الحاجة إلى معرفة هذه العلوم، أو- على الأقلّ- الوقوف على أهمّ النقط الأساسية فيها.

فالجالس في داره، والراكب في القطار، والطائر في مطار، والفلّاح في حقله، والراهب في صومعته، ملتصقون بالطبيعة وبالعلوم الطبيعية، في مأكلهم ومشربهم وغرف نومهم، وفي حِلِّهم وترحالهم، وفي كلّ أمورهم وأحوالهم. ومن هذا تُعرَف ضرورة العناية بدراسة العلوم الطبيعية.

سبق لي أن ردَّدت لك كلمة مشهورة، وهي «أن الكثير ممّا نتعلّمه في المدارس لا يفيدنا في حياتنا»، فذلك الكثير الذي قلَّما يفيدنا في حياتنا الحقيقية العملية، المرتبطة بصحَّتنا وراحة أجسامنا وعقولنا، ونجاحنا في الحياة، هو ما ليس من تلك العلوم الطبيعية التي عليها مدار الكون.

إن الإنسان- يا بنيَّ- ميّال، بفطرته الطبيعية، ومنصرف (على ما أعتقد)، بتأثير الوراثة عن آبائه الأولين، إلى حبّ الزينة والتجمُّل والبهرجة، لذلك

تراه ينسى قيمة الشيء النافع نفعاً صحيحاً، ويهتمّ بالزخرف اهتماماً عظيماً، فكما يوجِّه الزنجيّ (كما يبرهن، بذلك، الفيلسوف «هربرت سبنسر» المتوحِّش عنايته إلى الزينة وصبغ جسمه بالألوان، ولبس القلائد من الخرز والسبح، ووضع ريش الطيور على رأسه، ويهمل تغطيه جسمه لاتقاء حَرّ الصيف، أو قَرّ الشتاء، كذلك نحن، فرغم مدنيَّتنا ورقيِّنا وتهذيبنا، ورغم قرع ناقوس الحقيقة في آذاننا، نقدِّر الأقمشة مثلاً، لا بمقدار صفتها الواقية لنا أو النافعة لأجسامنا، بل بدرجة حسن منظرها ودقّة نسيجها وزاهي ألوانها. وهكذا نحن مع العلوم والمعارف، فترانا نقضي الجزء الأعظم من الحياة في العناية بمعارف ومعلومات لا تفيدنا في حياتنا ومستلزماتها، بمقدار ما ننفقه من العمر، ومن المجهود العقلي فيها.

ولقد ذهب الفيلسوف «سبنسر»، في هذا الموضوع، إلى أن أكثر ما نتعلَّمه من علوم اللغات والأدب والتاريخ والرياضيات هو من قبيل الزينة والتجمُّل، في حين أن حاجتنا الحقيقية، في معترك الحياة، تحتِّم علينا أن نجعل التعليم الأساسي، في تربيتنا، قائماً على العلوم الطبيعية. ولهذا الحكيم العظيم آراء، هي منتهى الحكمة وغاية الصواب، في هذا الباب. وإني، لذلك، أحثّك على قراءتها، وتمعُّن المراد منها في كتابه المَعْنْوَن بـ«التربية».

إذا وعيتَ- يا بنيَّ- كلمة هذا الفيلسوف التي يقول فيها: «تجد أحدهم يخجل إذا أخطأ في نطق لفظة من أسماء أساطير قدماء اليونان أو الرومان، ثم هو لا يُظهر شيئاً من الخجل أو الأسف إذا صَرَّحَ، واعترف بأنه يجهل عمل الجهاز الهضمي مثلاً، أو مقياس حركة النبض، أو

كيفية انتفاخ الرئتين؛ فما أفظع تقديم الزخرف، في تربيتنا، على المنفعة الحقيقية!».

ومن قوله في فضل العلوم الطبيعية على سواها: «طرحت المدارس أغلب العلوم التي هي ألصق المعارف بأعمال الحياة. وليس لتعليم المدارس أدنى فضل في تلك العلوم التي أمكننا، بواسطتها، تذليل الطبيعة واستخدامها، حتى أصبح العامل الحقير يتمتَّع بما لم تنله أعاظم الملوك، في الأزمان الأولى» (كالنور الكهربائي، والسكة الحديدية، والترام، والسيارات، والاحتياطات الصحية، مثلاً).

وسترى، في كتاب هذا العالم الكبير، أنه جعل العلوم الطبيعية أساس كلّ تربية وتعليم، وأقام الحجّة الناصعة على أن المهندس والمصوِّر والشاعر والكاتب والمشرِّع يكون الواحد منهم أكثر دراية بفنِّه، وأقرب للتفوُّق فيه، إذا هو درس العلوم الطبيعية، ووقف وقوفاً تامّاً على جواهر هاتيك العلوم المختلفة، ممّا يرتبط بفنّه، وممّا لا يرتبط به.

وإني- يا بنيَّ- أريد أن أبيِّن لك أهمّيّة العلوم الطبيعية، لكي تتصرّف إليها بكلّ ما أوتيت من ذكاء ونشاط. وإني أتشدَّد في هذه النقطة، لأني أعلم أننا، في المدارس، لم نكن نعير العلوم الطبيعية مثل الاهتمام الذي كنّا نوجِّهه إلى دراسة الآداب، وما فيها من لذّة عقليّة، ومباحثات ومجادلات أدبيّة، وأخرى فكاهيّة.

فلكي أبيِّن لك أهمّيّة العلوم الطبيعية، أرجع إلى رأي «سبنسر» في بيان درجات العلوم المختلفة، من وجهة فائدتها للإنسان في حياته، فقد بَيَّن ذلك الفيلسوف والمفكِّر العظيم أن مساعي الإنسان، نحو إدراك العلوم،

يجب أن تسلك الترتيب الطبيعي لمنفعة الإنسان، على النمط الآتي:

أوَّلاً- العلوم التي تساعد الإنسان في المحافظة على حياته ووقايتها من الأمراض.

ثانياً- العلوم التي تساعد على صيانة النفس بواسطة إحراز المعاش.

ثالثاً- العلوم التي تعين على تربية الأطفال تربية صحيحة نافعة لأبدانهم ونموُّهم.

رابعاً- العلوم التي تؤهِّل المرء لأن يكون عضواً عاملاً في الهيئة الاجتماعية.

خامساً- العلوم التي تزيد في رفاهية للإنسان.

فأنت ترى- يا بنيَّ- أن هذا البيان الصادق للعلوم والمعارف، وهو قول لحكيم مخلص في حبِّه خدمة الجنس البشري، قد جعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى، بلا نزاع، فالمحافظة على الحياة، وحفظ الصحّة، ووقاية الإنسان من الأمراض القاتلة، والأوبئة الفاتكة، وتربية الأولاد، ورفاهية بني الإنسان، تحتاج، في مقدِّمة كلّ شيء، إلى معرفة هاتيك العلوم الطبيعية، كالطب والجراحة، وعلم الأدوية والكيمياء، والطبيعة، وعلوم الكهرباء، والهواء، والماء، وما في جوف الأرض من معادن وعناصر. ولا سعادة للإنسان، في هذا الزمان، بل لا تحسُن المعيشة فوق هذه الكرة الأرضية، إلا بالوقوف على هاتيك العلوم الطبيعية.

نحن- يا بنيَّ- نعيش في حياة مرتبطة بالطبيعة، وقائمة على أساس مبدأ تنازع البقاء، وبقاء الأصلح الأصلح، لا في الجسم، فقط، بل الأصلح في

الجسم والعقل، وإذا لم يكن من حظِّنا الحصول على تلك المعارف التي هي سلاح الأفراد والجماعات، في هذا الجهاد الدنيوي، فلا أمل لنا في الفوز، بحالٍ من الأحوال.

ثم إنك تفهم- بالطبع- أن توجيه عنايتك للعلوم الطبيعية، في أثناء الدراسة التجهيزية (أي التي تتجهَّز بها لاختيار فَنّ من الفنون)، يجب أن يكون ملاحَظاً فيه ميلُك إلى الفنّ الذي تريد أن تتَّخذه حرفةً لحياتك العملية، فإذا كانت وجهتك الاشتغال بالأدبيّات، كأن تكون صحافياً أو محرِّراً رسمياً، أو الاشتغال بالقانون في المحاماة أو القضاء، أو بأيّة حرفة لها اتِّصال واهتمام باللغة والأدب، فلا يتحتَّم عليك أن تجعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى، إلا بقدر ما يلزم منها في المعلومات، التي لا غنى عنها لإنسان متعلِّم يفهم المعيشة، ويريد أن يحيا حياة طيِّبة، سواء من أصول الطبيعة، ومن علوم الصحّة، والمعلومات الطبّيّة الضرورية، وبعض المعارف الطبيعية عن النبات والحيوان والإقليم والجو والماء والهواء، وما أشبه ذلك.

أمّا إذا كانت وجهتك الاشتغال بالطبّ- وذلك ما سأكتب لك عنه عندما يحين الوقت للنظر في أمر مستقبلك واختيار حرفتك- فيجب عليك أن توجِّه كلّ مجهودك، وميلك العقلي، وحبّك العلمي، إلى جميع هاتيك العلوم الطبيعية، فيكون إقبالك على الكيمياء والطبيعة وتجاربهما في المعمل المدرسي عظيماً، ومصحوباً بالشغف والرغبة الصحيحة.

ولتكن عنايتك بدراسة العلوم الطبيعية مقرونة بحبّ الاستطلاع، ورغبة الوقوف الصحيح على أسرار الطبيعة وجلالها، وتقديس خالقها وموجدها.

وليس ممّا يحتاج إلى دليل أن العلوم الطبيعية ليست كالعلوم: اللغوية، والأدبية، والتاريخية التي تقبل الجدل والمناقشة، ويمكن أن تكون سليمة وصحيحة على شكلَيْن، وفي روايتَيْن مثلاً؛ لأن العلوم الطبيعية تقوم على مبادئ ثابتة، وتجارب صحيحة، وأسس وطيدة، ليس فيها، للخيال ولا للنظريات، أثر إلا بقدر ما يفرض من الفروض توصُّلاً إلى نتيجة تقوم عليها البراهين المحسوسة. وللطبيعة أسرار لا تفنى، فهي تكشف كلّ يوم القناع عن شيء من تلك الأسرار. والذين يرفعون ذلك القناع، ويخدمون الجنس البشري، ويخفِّفون مصاعب الإنسان ومتاعبه في هذه الحياة، هم أولئك العلماء الأعلام المشتغلون بالعلوم الطبيعية، والاكتشافات العلمية.

ولقد تقدَّمت العلوم الطبيعية، في أوروبا، منذ بدء النهضة العلمية الحديثة (Renaissance)، لاسيّما بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي، تقدُّماً مضطَّرداً، رغم الاضطهادات الشديدة التي كان يلاقيها أولئك الذين كشفت الطبيعة عن بصائرهم، فهَدَتْهم إلى نور الحقيقة، فساروا في طريقهم، لا تصدّهم عنه محاكم التفتيش، ولا حرمان البابوات لهم، ولا ما كانوا يلاقونه من عذاب وآلام، وجاء «باكون» بطُرُقه الاختبارية في الفلسفة، و«نيوتن» الذي فتح الله بصيرته لقاعدة الجاذبية، و«ديكرت» الذي شاد للعلم أسساً جديدة، و«لبنز» العالم الفيلسوف، و«لوك» و«هيوم» اللذان أشرت إليهما في رسالتي لك عن آداب اللغة الإنجليزية، و«سبنسر» البحّاثة الاجتماعي، واضع أساس فلسفة النشوء، و«داروين» صاحب كتاب «أصل الأنواع»، ثم اكتشف البخار والكهرباء، وثبَّتَ الصحيح من عِلْمَي الطبيعة والكيمياء. وماذا أقول لك عن القواعد العلمية الصحيحة التي وضعها«لابلاس»، و«لافوازيه» و«إرنست هيغل»

و«أوغست كانط». أولئك هم هداة الجنس البشري، وقادته إلى سبيل الرفاهية والسعادة، والصعود إلى معارج الملكوت الأعلى، فمتى عرفت ذلك أدركت ما للعلوم الطبيعية من القيمة والفضل والجلال، فجعلت لها المنزلة الأولى في تربيتك الصحيحة، التي لا يتحقَّق لك فوز بدونها.

ولطالما خلط قوم، فقالوا إن الانكباب على دراسة العلوم الطبيعية والتعمُّق فيها يبعد الإنسان عن العقيدة الدينية؛ وهذا نهاية الخطأ والخطل، فإن الإنسان كلَّما ازداد علماً بأسرار الطبيعة، ازداد يقينه بإجلال ذلك الموجِد العظيم (سبحانه، وجَلّ شأنه). وهذا «داروين» واضع كتاب «أصل الأنواع» [1]، يقول عن نفسه: «يستحيل على العقل الرشيد أن تمرّ به خلجة من الشكّ في أن هذا العالم الفسيح، بما فيه من الآيات البالغة، وتلك الأنفس الناطقة المفكِّرة، قد صدر عن مصادفة عمياء؛ لأن العماء لا يخلق نظاماً، ولا يبدع حكمة، ذلك أكبر برهان يقوم عندي على وجود الله».

وقد كتب «سبنسر» فصلاً ممتعاً في علاقة العلوم الطبيعية بالاعتقاد الديني، في كتابه «التربية» الذي سبقت الإشارة إليه، فألفتك إليه، وأرجو أن تقرأه بدقّة وإمعان.

حقيقة- يا بنيَّ- أن التقاليد الدينية (ورجال الدين) في عصور مختلفة، وقفت في سبيل تقدُّم العلوم الطبيعية، وحاربت انتشار هاتيك العلوم باسم الدين، لكن ذلك لم يكن منشؤه الدين الصحيح، بل ما دخل عليه من خرافات وآراء، ومادعت إليه صوالح أولئك الذين كانوا يظنّون أن

سلطتهم الروحية معرَّضة للزوال بانتشار العلوم الطبيعية وتقدُّمها. وأحسن ما وُضِع في باب مقاومة رجال الدين لهذا الصنف من المعارف الطبيعية، كتاب ألَّفَه المستر «جون ويليام درابر» الأميركي، تحت عنوان «تاريخ النزاع بين الدين والعلوم الطبيعية»)

وقد أثبت المؤلِّف، في فصوله الممتعة، ما كان للدين الإسلامي وحرّيّته من الأثر الصالح في تنوير الأذهان، وإزالة غشاوة الجهل عن العيون. غير أن هذا لا ينفي ما حدث، في بعض عصور المدنيّة الإسلاميّة، من وقوف بعض رجال الدين عقبة في سبيل انتشار العلوم الطبيعية. كما تثبت ذلك الاضطهادات التي لَقِيها فلاسفة الإسلام، وعلماؤه الأعلام، وماتعرضت له كتبهم من الإتلاف والإحراق.

وإني لأرجو أن تبذل منتهى الهمّة والعناية في دراسة العلوم الطبيعية، لأني أميل كثيراً إلى اتِّخاذك صناعة الطبّ حرفةً لك في مستقبل أيّامك، وسأكتب لك، في هذا الموضوع، كلمة في الرسالة المقبلة، لأني أريد أن أبحث معك في موضوع اختيار مهنتك.

وأسأل الله تعالى أن يكلأك بعين رعايته، وأن يوفِّقك لاختيار أشرف الصناعات وأنفعها لك، في حياتك المقبلة. ولك مني التحيّة والسلام.

الرسالة الرابعة عشرة
اختيار المهنة

ولدي العزيز،

أظنّ أن الوقت قد حان للفكر والبحث فيما تريد أن توجِّه إليه غايتك في حياتك المستقبلة، وأعني بهذا اختيار المهنة، أو العمل الذي تريد أن تتَّخذه وسيلة لكسب معاشك، وواسطة لإدراك مطامعك وآمالك. وهو ما يصحّ أن تعبِّر عنه بالإنجليزية بـ «The choice of your future career».

يقف الإنسان- يا بنيَّ- في أوقات كثيرة من حياته، في مواقف دقيقة، وساعات حرجة، موقف المتردِّد، بحيث يتوقَّف، على اختياره وقراره، في تلك اللحظة الخطيرة الشأن، إمّا فوز ونجاح، أو فشل وخسران؛ بعبارة أخرى: إمّا حياة أو موت!

تلك هي الساعات التي يختار فيها الإنسان العمل الذي يريد أن يتَّخذه صناعة في حياته المقبلة، بل تلك هي الساعات التي يقف فيها الإنسان في مفترق الطرق، فإمّا أن تهديه فطرته، وترشده بصيرته، أو تدفعه همّته، إلى الطريق التي يجد فيها الوسائل لتحقيق مطامحه وآماله، أو

يخطئ النظر، ويضلّ الطريق، ويسلك سبلاً ملتوية، فيعاكسه الدهر لسوء اختياره، فيرى نفسه غير موفَّق لتحقيق ما كان يؤمِّله في حياته، بل ما هو جدير به. فعلى اختيارك- يا بنيَّ- السبيل الذي تسلكه في حياتك المقبلة، وعلى اختيارك نوع العمل أو المهنة، يترتَّب ما كُتِب لك في لوحة القضاء، من فوز ونجاح ورقيّ وهناء، أو من تسكُّع وفشل، وهمّ وعناء.

فقف، يوم تصل إلى ساعة الاختيار، موقف المفكِّر المتدبِّر، ولا تعتمد على رأيك وميلك وهواك، بل الْجَأ إلى من هُمْ أكبر منك سنّاً، وأكثر تجربة في الحياة، وخذ برأيهم، واعتمد على مشورتهم، فلن تجد، في هذا الموقف، مَنْ يخفي عنك الحقيقة.

قلت لك: لا تعتمد على رأيك ومَيْلك وهواك، لأني تعبت في حياتي، من جرّاء الاعتماد على هذا المَيْل والهوى، ولقيت ما لقيت من متاعب ومصاعب وأمور، أنت أَوْلى الناس بمعرفتها. ولو أني أصخت سمعاً لمن نصحني باختيار مهنة الطبّ لكنت- على ما أظنّ- قد وُفّقت إلى تحقيق ما طمحت إليه، وما أردت. لكنني أحببت الأدب، وشغفت بالصحافة، فاندفعت في طريق غير مأمون العواقب، بل غير مجدٍ ولا مخصب، رغم مافيه من ظهور وشهرة وخدمة عامّة، قد يُحَقَّق الكثير منها في أيّة حرفة من الحِرَف الشريفة العظيمة الفائدة للأمّة، كالطبّ، والهندسة، والمحاماة، بل القيام بوظيفة في حكومة البلاد.

وما هو واجبي؟، بل ما هي مهمَّتي؟، بل ماهو الغرض من رسائلي المتكرِّرة المتوالية، إذا أنا لم أصارحك القول في هذا الموقف العصيب، وأشير لك، بإصبعي، إلى الطريق المعبَّد، والسبيل الممهَّد، وأحذِّرك من الولوج في

المسالك المملوءة بالأشواك والأدغال، والمعرّضة للأخطار والمفاجآت، كيما يسلم جسمك وعقلك، وتأمن على صرح حياتك من التداعي والانهيار، بعد أن تكون قد أقمت بناءه، بجدَّك وكدَّك، أعواماً طوالاً؟.

الحياة- يا بنيَّ- لا تُعاد مرّةً أخرى، ومن ذا الذي ضلّ السبيل، ولم يتمنَّ أن يبدأ حياته من جديد؟ كثيرون يتمنّون ذلك كما يتمنّى الهَرِم أن يعود شاباً. من ذا الذي شعر بالخيبة، أو أحسَّ بأنه قد فاته، في أيّام شبابه وعنفوان صباه، ما كان يستطيعه من وراء مجهود كان ممكناً في ذلك الزمن، فلم يعد مستطاعاً بعد ذلك؟ أقول: من ذا الذي شعر بشيء من هذا ولم يردّد الكلمة الفرنسية المشهورة:

Ah. si jennesse savait»

et si vieillesse pouvait

ومعناه بالعربية:

آه لو عرف الشباب!،

واه لو قَدِر المشيب!»؟

فاحذر أن تقع، في يوم من الأيّام، في مثل هذه الندامة، وذلك بأن تحسن التفكير في أيّام شبابك، وتحسن اختيار مهنتك، وتبذل أفضل مجهود للوصول إلى بغيتك، فتأمن مغبّة الزلل وألم الندم.

ولننظر، أنا وأنت، إلى الحقائق، ولا نضرب في بيداء الأوهام والخيالات، ولنعالج أمر اختيار مهنتك، من وجوه النظر المختلفة، لنصل إلى إقناعك

بما يجب أن تضعه نصب عينيك، وهدف سهامك، فلا تحيد منه، ولا تنصرف عنه.

إنني أعلم أنك، في اختيارك لمهنتك، ستكون مسوقاً بدافع ميلك العقلي، أو لتفوُّقك في فَنٍّ من الفنون. لكن هذا الميل أو التفوُّق الوقتي، لا ينبغي أن يقف حائلاً دون الإصغاء إلى رأي أولي الخبرة في الحياة. وأظنّك تفهم الغرض من هذه الإشارة إذا قلت لك أن الميل الغريزي لفرع من فروع العلوم لا يمنع الاشتغال بفرع آخر، كحرفة في الحياة، بحيث يكون هذا الاشتغال الجدّي للمصلحة المادّيّة وكسب المال، الذي هو أساس كلّ سعادة وهناء في هذه الدنيا، بالرغم عن كل ما يُكتَب، ويُقال.. ويكون، بعد ذلك، الميل الغريزي، إلى الفروع الأخرى، من قبيل اللّذة العقلية، وقضاء أوقات الفراغ، في أعمال أدبية أو علمية. ولكم عرفت من الأطبّاء مَنْ كان أديباً كاتباً، وشاعراً مفلّقاً مبرِّزاً! لكن أدبه وشعره ما كانا ليجمعا له ما جَمَع من الثروة، وما خلَّف من الخيرات لأولاده من بعده. وزد على ما تقدّم أن اتِّخاذ حرفة من الحِرَف، كالطبّ والهندسة أو المحاماة، مثلاً، لا يمنع الإنسان من الاشتغال بالحرفة التي يميل إليها بفطرته، وإن لم يتَّخذ دراستها وسيلة للمعاش، فكثيراً ما سمعنا، ورأينا، أطبّاء في صفوف الصحافيّين والسياسيِّين ورؤساء الحكومات، وفي مجالس النوّاب.. وهلمَّ جَرّا.

تعلّمَ صديقي الدكتور «إدوارد براون»، المستشرق الشهير، صناعة الطبّ، وحاز فيها درجة عالية من جامعة كمبردج، ولكنه لم يتَّخذها حرفة له، بل شَغُفَ باللغات الشرقية، وسافر إلى بلاد فارس، فإذا قرأت كتابه الجليل المعَنْوَن بـ«عام بين الأعجام» (وأُلِحُّ عليك بضرورة الاطِّلاع على

هذا الكتاب) ترى كيف أن صناعة الطبّ أفادته في رحلاته، وأنقذته، في بعض الأحيان، من الأخطار، وسهَّلت له وسائل إدراك المعارف التي كانت نفسه ظامئة إليها.

وأوَّل ما يجب أن تضعه نصب عينيك، في اختيار حرفتك، هو أن تكون، بواسطتها، قادراً على كسب المال اللازم لنفسك ولأسرتك، في المستقبل، ولبناء صرح المجد الذي تتطلَّع إليه، دون أن تكون، في ذلك، محتاجاً إلى معونة من أحد، أو مضطرّاً إلى مجاراة أو خدمة أغراض قوم، مهما ارتقت منزلتهم أو عَلَت كلمتهم. و- بعبارة أكثر إيضاحاً- أقول: إنني أحبّ لك أن تأخذ في حياتك بعمل تكون فيه حرّاً مطلقاً، غير مرتبط بالتقلُّبات السياسية أو الحكومية، بحيث تستطيع أن تعيش في أيّة مدينة، أو تقيم في أيّ بلد، تعرف كيف تكسب فيه المال، وتخدم قومك، أو الجنس البشري، على وجه الإطلاق. وليس، في نظري، أقرب لتحقيق هذه الأمنية من صناعة الطبّ.

ولقد ذكرت لك إنني أحبّ أن أواجه الحقائق معك، ولا نضرب في بيداء الأوهام والخيال، فلو كنت ذا ثروة كبيرة، مثلاً، وكان في الإمكان أن ترث، من المال والعقار، ما يضمن لك مقدار ما يجب إنفاقه على نفسك، لَصَحَّ لك أن تختار ما تريده من المهنة، وما تنصرف إليه جوارحك من الأعمال الفَنّيّة أو الأدبيّة. أمّا، والحال غير ذلك، واعتمادك في المستقبل لا يكون إلّا على نفسك، وعلى ما تكسبه بعملك وجدّك واجتهادك، فأنت مسؤول أمام نفسك، وأمام أهلك، بل أمام المستقبل المجهول من ولدك، أن تختار المهنة التي هي أضمن من سواها.

وقد يرى بعضهم أن دراسة الحقوق تمكِّن الإنسان من اتِّخاذ حرفة المحاماة، وهي حرفة شريفة، كما أنها قد تفتح الباب للطموح إلى مراكز الحكم والنفوذ والصعود إلى أعلى مراتب المجد، وهذا صحيح يا بنيَّ، لكني ممَّن يعتقدون أن صناعة الطبّ أنفع لصاحبها من كلّ الوجوه، فهي- أوَّلاً- وسيلة، من أحسن الوسائل، للمحافظة على صحّة الإنسان وآلِه، وذلك أسّ السعادة والهناء، وأوَّل ما يكون الطبيب لنفسه وآله وولده، وهي- ثانياً- لا تتقيد ببلد ولا بلغة، فالطبيب المصري طبيب في أوروبا، وطبيب في أميركا، وطبيب في مجاهل إفريقية، والمحاماة ليست كذلك. أمّا من حيث التطلُّع إلى مراكز الحكم والنفوذ فليس ذلك بممنوع عن الطبيب إذا وُجِدت في نفسه هذه الرغبة، وخصوصاً إذا ارتقت النظامات النيابية في هذه الديار. ومن ذا يفضِّل المنازعات السياسية والتقلُّبات الحكومية على حياة العلم وتخفيف مصائب الإنسانية؟!.

وهناك مهن كثيرة، في مصر، كمهنة المهندس، والزراعي الفَنّي، والأعمال التجارية، وليست، في نظري، ممّا يحسن اختياره بالنسبة إلى حالك وظرفك الخاصّ. وقلّما يستغني المهندس عن خدمة الحكومة، إلّا اضطر إلى الاشتغال بأعمال شاقّة تقضي عليه بالتنقُّل في القرى، أو مباشرة تشييد مبانٍ، أو ما أشبه ذلك. مع أن العلوم التي يتلقّاها المهندس، والموادّ التي يجب عليه إتقانها قبل الحصول على الشهادة النهائية، من أصعب المعارف، و- ربَّما- كانت أصعب، في التحصيل، من العلوم الطبية، لكن فوز الطبيب في الحياة أكثر ضمانة من مستقبل المهندس، حتى لو ارتقى درجات عالية في وظائف الحكومة، أمّا التجارة والزراعة وما أشبه ذلك فليست لك، إنَّما هي لقوم ينشؤون فيها، أو يكون لديهم من الأطيان

الواسعة الخصبة ما يمكِّن من الحصول على الإيراد الكافي.

والخلاصة- يا بنيَّ- أنني أحبّ لك أن تفكِّر طويلاً قبل اختيار الطريق الذي تسير فيه، وأنصحك أن تعتمد على رأيي الذي أبديته لك في هذه الرسالة. وسأكتب لك بعض آراء عن الحياة العملية، بعد خروجك إلى شاطئ السلامة ونعيم العيش. وأسأل الله أن يوفِّقك إلى اختيار أسلم الطرق، وأن يجعلك سعيد الحظّ، موفور الكرامة. وسلام الله عليك وأزكى تحيّاته.

الرسالة الخامسة عشرة
بعد المدرسة

ولدي العزيز،

أريد، الآن، بعد أن شرحت لك رأيي في طرق التعليم والدراسة في بعض العلوم، أن أكتب لك شيئاً في تهذيب الأخلاق، والآداب العامّة، وفي حسن السيرة، إلى غير ذلك ممّا يخطر ببالي من آنٍ إلى آخر، وغرضي من ذلك هو أن تقرن العلم بالأدب، وتثقيف الذهن بحسن السيرة، وحسن المظهر، وكمال الظرف، ورقّة الحاشية، وجمال الخلق. وأريد بهذا- أيضاً- أن أرشدك إلى سواء السبيل، وأن أنبِّهك إلى المزالق الذي تجب الحيطة من الوقوع فيها.

بعبارة أخرى: أريد أن أقدِّم لك خبرتي وتجاربي في الحياة، كيلا تقع في مثل ما وقعنا فيه من أغلاط، ولكي لا تدفع، في حياتك المقبلة، ما دفعناه فيها من ثمن غالٍ، وما تجرَّعناه من مرارة الحياة، وذقناه من آلامها.

أريد أن أضع نفسي منك موضع المرشد لك، الحريص على سلامتك، الشغوف براحتك. ولا تظنّ، فيما أريد أن ألقيه عليك من النصح والإرشاد، أني سأملي عليك إرادتي، بوصفي والداً أو مربياً. كلّا، إنني أريد، فيما

سأبعث به إليك، في رسائلي المقبلة، أن أخاطبك كصاحب وصديق، بل صديق متساهل، يفهم الطبيعة البشرية، ولا يريد أن يكون متشدِّداً متعجرفاً. أريد أن أهديك وأرشدك، حتى في لعبك ولهوك، لأنني أعتقد أن طرق النصح والإرشاد للناشئين يجب أن تتكيَّف بحالة الزمان، وظروف الإنسان.

هذا، فضلاً عن أني ممَّن يعتقدون أن الزمن الذي كان يصحّ فيه النصح، على طريقة التخويف من العقاب، والوعد بالثواب، وما في الآخرة من جنّة ونار، قد مضى وانقضى.

ولذلك، سترى أنني، بدلاً من أن أقول لك: إن هذه أو تلك خطيئة فلا ترتكبها، سأقول لك إنه لا يليق بأدبك، ولا يليق بشرفك، ولا يليق بنشأتك، ولا يليق بسمعتك، ولا يليق باسم أهلك وقومك، أن تقرب تلك الرذيلة مثلاً، بل سأجتهد في إقناعك بأن تمسُّكك بالفضائل، ومحافظتك على حسن السمعة. وما يجري مجرى ذلك من كمال الأخلاق، والبعد عن الرذائل، لَهُوَ من ضروريّات نجاحك في الحياة، وأن من مصلحتك الذاتية أن تكون في جانب الفضيلة، وأن تسلك مسلك الأدب والكمال.

رغبتي هي أن أوقظ فيك عاطفة المَيْل إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، وأن أحذِّرك من ارتكاب الهفوات والأغلاط، وأريك ما ينتظرك في مستقبلك؛ بعبارة أخرى: أريد أن أرفع لك المصباح بيدي، أنير لك الطريق، حتى يشتد ساعدك، وتأمن على قدمك من العثار. ولكي أؤدّي هذه المهمّة، التي أعتقد أنها من واجبي نحوك، كما أنها من أقدس الواجبات على كلّ والد، حتى لا يصدق عليهم قول المعرّي «هذا جناه أبي..».. لكي أؤدّي هذه

المهمّة، أبدأ، في هذه الرسالة، بأن أذكر لك أن الحياة المقبلة التي تنتظرك، بعد إتمامك دروسك، وخروجك من المدرسة، ليست كما تصوِّرها لكم مخيِّلاتكم، وأنتم في زمن التعلُّم. فأنا أعرف، وأعتقد، أنكم تتصوَّرون أن زمن الدراسة هو زمن التعب والشقاء، وأن السعادة والهناء هما فيما وراء سور المدرسة، وبعد نَيْل الشهادات.

هذه فكرة كلّها خطأ وضلال، واعتقاد صحّتها يعود بالضرر الكبير على الشبّان في مقبل حياتهم، بل يسيء إليهم في زمن دراستهم. وعندي أنه يجب أن يُكَتب في هذا الموضوع مطوّلاً، ومفصّلاً، وأن يُغرَس في أذهان الطلبة فكرة أن حياتهم المدرسية هي أسعد أيّامهم، وأهنأ أوقاتهم، وأن الذي ينتظرونه من الحياة السعيدة والراحة المستديمة، بعد إتمام دروسهم، ليس صحيحاً.

يجب أن يُغرَس هذا في أذهان الطلبة، لأن له فوائد كثيرة، منها أنهم يقبلون على التعليم بلذّة وسرور، ويذهبون إلى المدارس، صبح كلّ يوم، بوجوه مشرقة وثغور باسمة، ويعودون إليها، بعد كلّ عطلة وإجازة، بسرور وفرح وطرب، فيزداد فيهم المَيْل إلى التعلُّم، ويزداد حبُّهم لرفقائهم، وحبُّهم لأساتذتهم، وحبّهم لألعابهم الرياضية، وحبُّهم للمدرسة ولكلّ شيء فيها.

ومن فوائد ذلك- أيضاً- أنه إذا أعتقد الطلبة أن إيّامهم المدرسية هي أهنأ أيّامهم، وأن الجهاد والجِلاد، والتعب والنَصَب، لا تبدأ إلّا عند الدخول في الحياة العملية، فلا يقوى عندهم المَيْل الشديد إلى التخلُّص من الدراسة، ولا يبلعون دروسهم بلعاً بغير مضغ، فلا تهضمها عقولهم، ولا تسري

في أرواحهم، وزدْ على ذلك إنهم متى تأكَّدوا، وأدركوا، وأيقنوا أن الحياة المقبلة عليهم ليست كما يصوّرونها في مخيِّلاتهم؛ جنّة قطوفها دانية، بل- بالعكس- هي حياة كدّ وجدّ، فإنهم يفكِّرون في اختيار العدّة إلى ذلك؛ الجهاد الطويل، من علم وعمل وأخلاق، كما يأخذ المسافر سفراً طويلاً عدّتَه لذلك السفر، من زاد ومؤنة ولباس وسلاح.

إن تصويركم- يابنيَّ- للحياة المقبلة تصويراً زاهياً لامعاً يسيء إلى عقولكم كثيراً يوم تلجون ميدان الحياة، وتُصدَمون بما تلاقونه فيها من مرارة وألم، وهَمّ وغَمّ، لذلك فإني أنصحك أن لا تصوِّر حياتك، بعد المدرسة، بذلك اللون الورديّ، بل صوّرْها كما أريد أن أُفهِمك إيّاها، على حقيقتها، واعلَمْ أنها حياة الجدّ والعمل والكفاح، لكيلا يصدم عقلك صدمة عنيفة، لأن الإنسان الذي يعرف أنه داخل على ظلام يُعِدّ له عينيه، ولا يؤخَذ على غرّة، ولا تتولّاه غشاوة، فيضلّ بعد هُداه.

وما فائدة العلم والتهذيب؟، بل ما فائدة هذه النصائح وأمثالها، إذا كانت لا تؤدِّي إلى إنارة الطريق لك في حياتك المقبلة؟ ولماذا ينفق الآباء أموالهم في سبيل تربية أبنائهم؟ وهل يجودون براحتهم وهنائهم ومطالبهم الخاصّة، إلا للحرص والشغف بمستقبل أبنائهم؟ وأوّل ما يجب على الآباء- كما قلت- هو أن ينبِّهوا أبناءهم إلى ما ينتظرهم، في المستقبل، من المتاعب والمصاعب.

إنني لا أريد أن تخرج، من هذه العبارات، بأن الحياة، التي أنت مقبل عليها، سوداء مملوءة كلّها بالهمّ والنكد والعناء... لا، لا، إنني بعيد عن هذه الفكرة كثيراً، بل أنا ممّن يعارضون فكرة التشاؤم، ونظريّة اليأس،

لأنها مضرّة بالأخلاق، ومؤدِّية إلى نكد العيش الدائم، والحياة- يا بنيَّ- فيها خيرها وفيها شرّها، لها ليلها، لها- أيضاً- نهارها، وإن كان لها مساؤها القاتم، فلها فجرها الباهر. ونعم لها شتاؤها، لكن لها- أيضاً- ربيعها وصيفها وخريفها.

إلّا أن الواجب هو أن يعرف الناشئون أن حياتهم المقبلة ليست كلّها كما تصوِّرها لهم مخيِّلاتهم في المدرسة، وأن من الواجب عليهم أن يكوِّنوا في أدمغتهم فكرة ما تحتاجه الحياة المقبلة من الاستعداد البدني، والعقلي، والأخلاقي لتلقّي صدمات الحياة إذا صدمت، ومواجهة العواصف إذا هَبَّت، وللفوز والوصول إلى مراتب المجد والعلاء، متى طُلِبت وقُصِدت.

وهنا، أحبّ- يا بنيّ- أن ألفت نظرك (وأنا متشدّد في هذه النقطة أكثر من كلّ شيء سواها) إلى أنه يجب أن تعتقد أن التعليم لا ينتهي بانتهاء الدراسة في المدرسة، ونيل الشهادات النهائية العالية، إنما التعليم في المدرسة أساس للتربية العقلية، وللتثقيف الصحيح الذي يُطلَق عليه باللغات الأوروبية كلمة «Culture»، ذلك التثقيف الذي لا يتمّ لإنسان إلّا في تربيته ودراسته الخاصّة. ولكي تكون رجلاً راقي الفكر، سامي الرأي، مثقَّف الذهن، عالماً فاضلاً متيناً، بالمعنى الصحيح، يجب أن تفهم أن التثقيف الحقّ يبتدئ بعد إتمام الدروس المدرسية التي تُعَدّ أساساً للتربية الحقيقية.

وهل يمكن أن يخطر في بالك أن التعليم المدرسي الذي يستوي فيه جميع طلبة العلم، على اختلاف استعدادهم العقلي واستعدادهم الوراثي، يكون كافياً للظهور في الحياة والميزة على الأقران؟ لو كان الأمر كذلك لكان

كلّ الحائزين على شهادات علمية متماثلة، في درجة واحدة من المنزلة العلمية، والسموّ العقلي، بل صَفّ واحد من صفوف الحياة، وما خُلِق الناس ليكونوا أنداداً وأمثالاً في كلّ شيء.

التثقيف- يا بنيّ- يبتدئ بدراستك الخاصّة وميلك للعلم الذي تنصرف إليه جوارحك، أو بحثك المستفيض في الفنون الذي يرتبط بحرفتك أو مهنتك أو وظيفتك في الحياة. والعلم ليس جامداً منتهياً عند حَدّ. كلّا، إن العلم، في كلّ نوع من أنواعه، سائر إلى الإمام، يوماً بعد يوم، إن لم تقلْ دقيقة بعد دقيقة. نعم، وقفت الأصول والقواعد الثابتة في العلوم ثبات جذع الشجرة وجذورها، لكن الأغصان والفروع تنمو في كلّ لحظة. ولهذا وجب عليك أن تتبع هذا النمو في الفنون التي تشتغل بها لمعاشك ومركزك، وكذلك في العلوم والمباحث التي تميل إليها لفائدتك ولذّتك.

لا يفُتْكَ في العلوم التي تختارها لحرفتك ولذّتك- كما ذكرت لك- أن تتبع الحركة العلمية فيها، بكل دقّة واهتمام، فتكون له صلة بالمكاتب والمطابع، ويصل إليك، من آن إلى آخر، بانتظام، جميع الفهارس للكتب الحديثة والمجلّات العلمية والمجلّات الأدبية التي تصدر في أوقات مختلفة، و- بعبارة أكثر اختصاراً- أريد لك أن تشغف بالعلوم والمعارف لتكون مناراً يهتدى به، حتى لا يمتاز عنك أحد من أقرانك وأندادك بشيء من الأشياء.

ولقد ورد، في الحديث الشريف، قول النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وسَلَّم): «لايزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل».

فتأمَّل- يا بنيَّ، رعاك الله- في قوله (عليه السلام): «من ظنّ أنه قد علم

فقد جهل»، ففيها كلّ الحكمة، وهي نهاية النهايات وغاية الغايات. فإن خطر ببالك، يوماً، أنك قد علمت أو انتهيت من العلم، فإن هذا الخاطر وحده، يكون العنوان الناطق بجهلك، وانحطاط عقلك.

ومثل هذا قول رجل حكيم من العرب، هو أبو عمرو بن العلاء، إذ قيل له: «هل يحسن بالشيخ أن يتعلّم»؟ قال: «إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلّم».

ومعنى هذا أن التعليم مقرون بالحياة، إلى آخر نفس فيها. فمتى عرفت هذا وتأكَّدت منه، وتأصَّل في نفسك، أمكنك أن تفهم أن العلم والتربية والتثقيف، إنما تبدأ بعد إتمام العلوم المدرسية، ومن هذا يمكنك أن تفهم الحياة التي أنت مقبل عليها بعد المدرسة، وتقدِّرها.

فلهذا أريد- كما قلت لك في مبدأ هذه الرسالة- أن أنبِّهك وأرشدك في مسالك تلك الحياة التي أنت مقبل عليها، وأسيرُ معك، لا كالآمر، المتعنِّت، بل أحبّ أن تتَّخذني معك «دليلك وفيلسوفك وصديقك». وأؤكِّد لك أنك ستستطيع معي صبراً، وأنك ستكسب من نصحي وإرشادي. والله المسؤول أن يجعلك ممَّن يستمعون النصح، ويعملون به.

الرسالة السادسة عشرة
السلوك

ولدي العزيز،

ليست العلوم والمعارف، على اختلاف أنواعها ودرجاتها، كيفما نبغت فيها، وكيفما أخذت بأوفر قسط منها، كفيلةً وحدها بنجاحك وفوزك على الأقران، وتقدُّمك إلى الصفوف الأولى بين بني الإنسان، وما أريد لك إلّا الفوز والنجاح والفلاح. إنني أنفق عليك من مالي القليل الضئيل، وأبعث إليك بهذه الرسائل، بين فترة وأخرى، وأُشرف على تعليمك، وأسأل معلِّميك عنك، وأفكّر في مستقبلك، على الدوام.. كلّ هذا رغبةً مني في أن تفوق غيرك، وتحصل على ما فاتني إدراكه؛ لظروف لا محلَّ لذكرها لك، وإن شئت أن أصرّح لك بشيء منها، فلا أقول لك أكثر من أنه لم يكن من حظّي أن أجد من يرشدني في مبدأ حياتي، كما أخذت على نفسي إرشادك وهدايتك، لكيلا تقع في شيء من الغلط أو الخطأ الذي وقعنا فيه، بحُسْن نيّة وسلامة قصد، فعاقَنا عن إدراك ما تريده من الآمال لأنفسنا، وما نعتقد أنه حقّ لنا.

أدع هذا؛ ففيه من الذكرى المؤلمة مافيه، وأدخل معك فيما أشرت لك إليه،

في أوَّل هذه الرسالة، وهو أن العلوم والمعارف، وسعة الاطّلاع والتهذيب التامّ، ليست وحدها كفيلة بنجاحك، إذ يلزمك التحلّي بأخلاق وصفات ومظاهر، لا اتِّصال لها بالعلوم والمعارف، ولا بالكتب والمباحث، ولا بالبلاغة والفصاحة، ولا بشيء ممّا أتعبت نفسك فيه من تحصيل تلك المعارف. وأعني، بتلك الأخلاق والصفات، مظهرك ولطف مقابلتك، وحسن بزّتك، وجميل هندامك، وظريف حديثك وكلامك؛ بعبارة أخرى: هو كسب رضاء الناس عنك، وميلهم إليك. وهــو ما سمّاه اللورد «تشتر فيلد»، في كتبه لولده «صناعة الإرضاء»)، وشرحها لولده شرحاً لطيفاً في الكتابات الرابع عشر من كتبه، فأَلْفِت نظرك إلى تلاوته بإمعان، فإن فيه الكفاية. وليس ثمّة ما يحملني على أن أردِّد لك، هنا، أقوال ذلك الرجل الحكيم وآراءه، فإن معرفتك باللغة الإنجليزية تغنيني عن تعريب بعض عباراته التي أفضِّل لك أن تطلَّع عليها، وتتفقَّه معانيها، في لغتها الأصلية. إنما أريد أن أنبِّهك إلى بعض الوسائل التي تلزمك في مثل أحوالك الخاصّة في بلادنا، وما أرجوه لك من حسن الأحدوثة وكمال الصفات.

إنني أريد لك أن تسطع وتلمع في الحياة: يُشار إليك بالبنان، وتُحنى لك الرؤوس إكراماً واحتراماً، ويملأ منظرك الصدور هيبة وجلالاً، ويبعث شخصك في النفوس حبّاً وانعطافاً، وتكون، إذا دخلت في مجلس من المجالس الحافلة، كالنور الكهربائي إذا سطع على الشموع، لا يطفئها، لكنه يجعل نورها دون نوره بهاءً وسناءً.

لهذا، أحبّ لك أن لا تستخفّ بشيء ممّا يعده الناس من المظاهر الكمالية

أو الخارجية، فلا يراك أحد إلا متجمِّلاً بأحسن اللباس وأقربه إلى الكمال والرقّة والظَّرف المطلوب المرغوب في زمانك، ولا يخطرنّ في بالك أن هذا يقتضي المال والإسراف للحصول على الملابس الفخمة الغالية! كلّا، فإن النظافة والبساطة، وسلامة الذوق وحُسْن الاختيار، تعوِّض، على المتوسِّطين من الناس، ما ينقصهم من الغنى والثروة، بل كثيراً ما رأينا متوسِّطي الناس أحسن بزّةً، وألطف هنداماً، وأكمل انسجاماً، من ذوي اليسار الذين يتكلَّفون ويسرفون في ملابسهم، بحيث يفقدون جمال الهندام، وينقصون من كمال الانسجام.

ومع أني أني أريد لك أن تكون دائماً متحلِّياً بأحسن الملابس، نظيفاً ظريفاً، فلا أحبّ لك، أبداً، أن تزيد في هذا إلى درجة أن توجِّه للقيافة كلّ اهتمامك، فتخرج من درجة الكمال والوقار، إلى الهزؤ والسخرية، وتصبح متكلِّفاً متحذلقاً. ومن أوَّل الصفات اللازمة، لمن يُعنى بأمر ملبسه وهندامه، أن لا يتعدّى تلك الدرجة إلى المنزلة التي يمكن لخصمه، ولكلّ إنسان حاسد، أن يرميه بأنه «متحفلظ» «متغندر»، جلّ همّه أن يخرج من منزله كالفتاة المولعة بنفسها. والحدّ الفاصل بين الظَّرْف الصحيح، والتظرُّف الممقوت، وبين الجميل الهندام، والمتحذلق المهذار، دقيق غير محسوس. فإن لم تكن حريصاً، كثير العناية باختيار مظهرك، لا إفراط ولا تفريط، فقد تنتقل، في شكلك، من المحبوب المطلوب إلى المحتقر الممقوت!

يشترك، مع حسن هندامك الظاهر، حسن المقابلة، ولطف الإشارة، وخفّة الحركة، وتناسُب الصوت؛ بحيث لا يكون مرتفعاً ولا منخفضاً، ولا خشناً ولا مرناً. ولا تقابل أحداً من الناس، كبيراً كان أم صغيراً، إلا باشّاً باسماً، متواضعاً متلطِّفاً، ولا تزدْ في حديثك عن الحَدّ المطلوب مع المناسبات التي

تقتضيها الظروف، وإذا رأيت في أحد منهم ما لا يرضيك من ظاهره أو حديثه، فلا تشعره بعدم رضائك أو نفورك، فإن الناس يحقدون على من يُظهرلهم تفوُّقه عليهم، أو احتقاره لمنزلتهم ولصفاتهم وأحوالهم.

وماذا يدعوك لاجتلاب حقدهم عليك، وأنت قادر على أن لا تدعهم يفهمون منك ما تراهم فيه من عيب أو نقص؟ والناس- يا بنيَّ- يحكِّمون أهواءهم، أكثر مما يحكِّمون عقولهم، فإذا رأوا منك تجاوزاً عن هفواتهم، وابتعاداً عن إظهار عيوبهم، وتحاشياً عن كشف نقائصهم، أحبّوك، وأثنوا عليك، وابتعدوا عن أذاك، وهو كلّ ما تطلبه منهم.

ولقد أشرت إليك، في تعبير خاصّ، إلى الابتعاد عن إثارة حقد الناس عليك، أو حسدهم لك، فنصحتك بأن تكون- إذا دخلت في مجلس من المجالس الحافلة- كالنور الكهربائي، إذا سطع على الشموس لا يطفئها، لكنه يجعل نورها دون نوره بهاءً وسناءً.

وهذه الإشارة تحتاج إلى تفسير وإيضاح، كما يجب أن تنغرس في ذهنك، وتنجلي لها بصيرتك:

من الناس- يا بنيَّ- مَنْ يتولّاهم الغرور، أو الثقة التامّة بأنفسهم، أو يتملَّكهم حبّ الظهور والتفوُّق على الأقران، أو تأخذ بمجامع قلوبهم شهوة الفوز، فينسون أن للناس نفوساً كنفوسهم، وعواطف كعواطفهم، ومطامع وشهوات كمطامعهم وشهواتهم؛ لهذا يسيئون إلى أنفسهم من حيث يريدون الإحسان إليها. ذلك لأنهم يجتهدون في كتم أنفاس غيرهم، وتحقير مدارك سواهم، والحطّ من كفاءة كلّ من يشهد مجلسهم، أو يحاول الاشتراك في مناقشةٍ معهم، فيجلبون على أنفسهم عداوة أولئك

الذين يميلون إلى الظهور والشهرة، بإظهار ما عندهم من علوم ومعارف واختبارات، وما خصَّهم الله به من طلاقة لسان، وفصاحة قول وتعبير، وبدلاً من أن يكسب الذكيّ الحصيف، من ذكائه وتفوُّقه، في مثل هذه المجامع الحافلة بالناس، أو يسمو على أولئك المتوسِّطين المولعين بالظهور، فإنه يخسر ميلهم إليه، و- ربَّما- حرَّضهم، بذلك، على معاكسته والسعي لإسقاطه من منزلته، حيث كان في إمكانه أن يسطع عليهم، ويسمو بحديثه وعلمه وذكائه عنهم، و، في الوقت نفسه، يجتذب قلوبهم، ويستدني إليه ميولهم، ولا يكون ذلك إلا بحسن التصرُّف في معاملتهم، وعدم التهجُّم على معارفهم، ويكون ذلك بتركهم يُظهرون ما يريدون أن يُظهروه من مميِّزاتهم، وهو، في خلال ذلك، يشرق عليهم بنور ذكائه الممتاز، ومعارفه الأسمى منزلةً، والأمتن صفةً، والأوسع مادّةً، والأصحّ روايةً، والأنضج ثمرةً، بحيث لا يشعرون بدبيب الحسد في نفوسهم، ويتمّ له ذلك بوسيلة، لا تدبّ معها عقارب حقدهم على شخص ممتاز عنهم.

هذا هو الذي أردته لك بإشارتي إلى النور الكهربائي: لا يطفئ الشموع، بل يُظهر سناءه عليها.

ومع كلّ هذا، فإني أعترف أنك لن تسلم من الحاسدين والمعادين، والناقدين والحاقدين؛ ومن ذا الذي استطاع أن يسلم منهم؟ وقد قيل: «إن رضاء الناس غاية لا تدرك»، لكن ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك جلُّه، وفي حسن تصريفك للأمور، وتناولك للعلاقات بينك وبين أقرانك وأندادك، باللطف والظرف، وكرم الأخلاق، والتواضع الذي لا يُنقِص من قيمتك، ولا يُبخِس من حقِّك، ما يساعدك على الإكثار من المحبّين والأصدقاء، والمعجبين بك والمعترفين بفضلك، وهذا يتبعه، بمقتضى الحال، الإقلال من الفريق

الذي لم تتمكَّن من ضمِّه إلى فئة أنصارك وإخوانك، ولم تستطع، بعد كلّ لطفك وأدبك وحسن معاملتك، أن تجذبه للانضواء تحت لوائك. وتذكَّر قول الشاعر

وما بكثيرٍ ألفُ خلٍّ وصاحبٍ وإنّ عدوّاً واحداً لكثيرُ

وأسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يجعلك ممَّن يألفون ويُؤْلَفون، وأن يوفِّقك، في حياتك المقبلة، إلى كسب رضاء الناس عنك، وثقتهم بك، وميلهم إليك. إنه سميع مجيب، وسلام الله عليك، ورحمته، وبركاته.

الرسالة السابعة عشرة

ولدي العزيز،

سترى- يا بنيَّ، في حياتك المقبلة (أطال الله أيّامك، وجعلها سعيدة هنية)- كثيرين من الرجال والسيِّدات، الذين تقضي عليك ظروف الحياة بمعاشرتهم والالتصاق بهم، لأسباب مختلفة، وترى من واجبك ومقتضى مصلحتك، أن تحظى برضائهم وميلهم ومحبَّتهم دون سواهم. أولئك هم الذين يجب عليك أن تبذل منتهى العناية في إرضائهم، وكسب مودّتهم، والظهور عندهم بمظهر الرجل الشريف الكامل الذي لا غبار عليه، من خلق أو سلوك، هذا فضلاً عن الثقة بأدبك وعلمك وفضلك، والاعتماد على كفاءتك وتفوُّقك ونبوغك، أولئك هم الخاصّة من الناس، الذين يقضي عليك واجبك بأن لا يظهر فيك نقص، أو تبدر منك بادرة ضعف أو سوء تصرُّف، أمامهم، أو نحوهم.

متى توجَّهت نيَّتك إلى اكتساب ثقة هذه الطبقة من الرجال والنساء، فأوّل ما يجب عليك هو أن تحافظ- أوَّلاً- على ماشرحته لك من حسن المظهر الخارجي، من نظافة وهندام، ولطف في الحديث، وبشاشة في الوجه، كما يجب عليك- ثانياً- أن تعلم أن قوّة إقناعك، بفضلك ورجاحة عقلك لكسب ثقتهم، قائمة، في الحقيقة، على قاعدة رقيِّك العلمي، والفكري،

والأدبي، فإذا ثبتت عندهم ميزتك على سواك، فقد وصلتَ إلى قلوبهم، ونلتَ محبَّتهم، ووثقتَ من رعايتهم وتعضيدهم.

لكن، يجب عليك أن تعلم- يا بنيّ- أن لكلّ رجل، ولكلّ امرأة- مهما سما عقله، أو سمت مداركها- مواضع ضعف، كما أن لهم مواهب راقية، وأخلاق سامية، وميزات خاصّة، فإذا أردت أن تحظى بثقتهم ومحبَّتهم، وإعجابهم ومودّتهم، فاجعل همَّك موجَّهاً إلى الثناء على مواهبهم، والاعتراف بفضلهم وفضائلهم، وإظهار جهلك أمام علمهم، وحاجتك إلى الاغتراف من بحر فضلهم. وتحاشَ أن تلمس، بالانتقاد أو الملاحظة أو الإشارة، أيّ شيء من النقص الذي تعرفه فيهم. وكثيراً ما يكون نقصاً بريئاً لا يضرّك أن تتملَّقه- بعض التملُّق- الذي لا يظهر أثره، بحيث لا يبدو على وجهك أو حركتك، أنك لا تريد من تملُّقك لضعف أحدهم، غير ما ينطق به لسانك، أو يعبّر عنه وجدانك، لأنه إذا اشتمَّ أحدهم منك رائحة التهكُّم، فقد خسرت ثقته ومودَّته. وقد يكون الرجل، مع ذلك الضعف فيه، عظيماً في كلّ صفاته الأخرى، فهو جدير بالإجلال والإكرام.

هذا الكاردينال «ريشيلو»- كما تعلم من درس التاريخ- كان أكبر سياسيّ في زمانه، بل كان من أعظم رجال العالم مقدرةً وعلماً، وسياسةً وكياسةً، فلم يكن في حاجة، من هذا القبيل، إلى شمّ بخور الثناء من أفواه الملتفِّين حوله، المتطلِّبين معونته ونصره، وكان فيه، مع ذلك، ضعف خاصّ، وهو اعتقاده، في نفسه، بأنه شاعر من الطبقة الأولى، فكان يحسد «كورنيل» صاحب رواية «السيِّد» المشهورة، حتى حرَّض على انتقاد روايته هذه، فكان، من الرجال الأذكياء المحيطين به، مَن انتفعوا كثيراً من تمليق تلك العاطفة، أو الضعف البسيط في خلق ذلك الرجل العظيم، وليس في ذلك شيء من العيب والعار.

وإرضاء النساء، مصريات كنَّ أم أجنبيات، وحُسْن عشرتهنّ، من الصفات الضرورية للناشئين، في حياتهم المقبلة، لأن سطوتهنّ ونفوذهنّ، في الدوائر العالية، أمر لا يغفل عنه إلا قصير النظر، ومحدود الآمال.

وأوَّل ما يجب على من يريد الحظوة عند النساء الفاضلات، أن لا يؤلمهنّ في مواضع ضعفهنّ، فهنّ فيه أدقّ أحساساً، وأنعم ملمساً من الرجال، فمنهن من تحبّ ان تُمَلَّق في جمالها، وهي ليست جميلة، لكنها تخال أن جمالها في رشاقتها وحُسْن هندامها ولطف حديثها، وأخرى تودّ أن تُمَلَّق في أدبها وعلمها وميزتها على مثيلاتها، وأخرى تحبّ أن تُمَلَّق في خفّة روحها، وسحر عيونها، فإذا جمعت، إلى حسن هندامك، ورشاقة مظهرك، ولطف معشرك، معرفة ما تصبو له نفوس أولئك النسوة الظاهرات، ذوات النفوذ والشخصية البارزة في الهيئة الاجتماعية، فأظهرت الميل إليهنّ، والثناء على ما في نفوسهنّ، والإعجاب بما يظهرن الرغبة فيه، والميل إليه، وإذا استطعت أن تفعل هذا بغير تكلُّف، وبدون لهجة المتلطِّف، وحركة المتظرِّف، التي تشفّ عن المَلَق والرياء، فإنك تكون قد وضعت حجراً متيناً في بناء هنائك، ونجاحك وفلاحك.

واعلم- يا بنيَّ- أن هناك فارقاً كبيراً بين الظرف الصحيح، والظرف المصطنع، أي بين الظرف والتظرُّف. وما دمت قد طرقت هذا الباب فيحسن بي أن أنبِّهك إلى ضرورة التحلّي بالأخلاق الظريفة، الخالية من كلّ تكلُّف أو ادِّعاء، أو محاولة التودُّد إلى الناس بمظهر من مظاهر التظرُّف الممقوت، الذي تلاحظه في كثير من الناس الذين يحبّون أن يوصَفوا بأنهم أهل ظرف وأدب ورقّة، ويسلكون، في سبيل الوصول إلى تلك الغاية، طرقاً غير مألوفة؛ كأن تراهم يبتسمون لكلّ الوجوه، ويهشّون، ويتقرَّبون،

ويتحكَّكون بالناس، ويسلِّمون عليهم بإشارات من أيديهم، وحركات من أجسامهم. وكلّ هذه أمور تجعل الإنسان يشعر، في الحال، بأنهم- فيما يظهرونه- غير صادقين ولا مخلصين.

ولا يقتضي ما ذكرته لك من ضرورة الأدب والتواضع، وحسن المقابلة، وظرف المعاملة، أن تخرج فيه عن الحَدّ الطبيعي الذي تألفه نفسك، ويألفه الناس منك، فلا تعبر الخطّ الفاصل بين الظرف الصحيح، والأدب الصادر عن إخلاص وحُسْن نيّة، ومقدرة على إظهار هذه الصفات الفاضلة في ثوبها الطبيعي الملائم، وبين ذلك التكلُّف الراجح، وحُسْن الاختيار، وكمال الاحتياط والوقار، بلا إفراط ولا تفريط؛ فـ«لا تكن ليِّناً فتُعْصَر، ولا يابساً فتُكْسَر»، وكن بين ذلك قواماً.

وما قلته لك عن الظرف والتظرُّف، يصحّ تطبيقه على الحَدّ الفاصل بين المداراة والسموّ عن شهوة التفوُّق على الغير، ومجاراة بعض الناس في ضعفهم الخاصّ بهم، وبين التملُّق البارد، والرياء الكاذب، والنفاق الباطل، وما يتبع ذلك من الصفات التي تنزل بصاحبها من درجة السموّ والكرامة، إلى مركز الأتباع والمنافقين والمداجين؛ وهو ما أحذِّرك منه، وأنبِّهك إلى الحيطة من الوقوع فيه، والحكم في ذلك الحَدّ الفاصل مَوْكول إلى حكمتك، أو ما يسمّونه، بالإنجليزية، «Your common sense».

هذا ما أردت أن أكتبه لك في باب السلوك ومعاملة الناس، وأنا عالم أنه لا يؤثِّر فيك، ولا في غيرك من الناس، شيء من هذا، إذ يرجع الأمر، في الحقيقة، وفي النتيجة، إلى إلهام فطري، وذوق خاصّ، وطبيعة خاصة، فإن وُفِّقت إلى تلك الروح اللطيفة والمزاج الظريف، فإنك تستفيد من

هذه الملاحظات التي كتبتها لك بإيجاز؛ ففي الأخذ من هذه النصائح من الوقاية، والحرص من الوقوع في الخطأ والضرر، ما أظنّه مفيداً لك ومنيراً لطريقك، ولهذا عُنيت بتحرير هذه الرسالة إليك، وأسأل الله (سبحانه، وتعالى) أن يوفِّقك، ويهديك، وينير سبيلك ، فالهداية والتوفيق، منه وإليه. والسلام عليك، وتحيّة منّي إليك، يا فلذة الكبد، وريحانة الفؤاد.

كلمة ختامية

كانت هذه الرسالة آخر الرسائل التي بعث بها المؤلِّف إلى ولده، وهو طالب في الكلّيّة الأميركية في بيروت، فلمّا أعلنت الحرب العالمية، وانقطعت المواصلات بين مصر وسوريا، لم يكتب الكاتب، بعد هذه الرسائل، شيئاً لولده.

الرسالة الثامنة عشرة
النجاح في الحياة

«هذه الرسالة كُتِبت سنة 1904، ونُشِرت في إحدى المجلّات العلمية. وقد وعدنا، في إحدى الرسائل السابقة، بإعادة نشرها في هذا الكتاب لعلاقتها بموضوع رسائله»

«كثيرون يفشلون، وواحد ينجح»
(لورد تنيسون)

يُؤْثَر عن أحد فلاسفة الفرنساويِّين أنه قال: «إنني أشفق على من يودّ الكتابة في المباحث الفلسفية بعد الذي كتبه فلاسفة اليونان الذين لم يتركوا مجالاً لقائل، ولا ميداناً لصائل، وإنني أشفق منه على من يودّ الكتابة في المباحث الاجتماعية الفلسفية بعد الذي كتبه فلاسفة اليونان والرومان والأوروبيِّين والشرقيِّين، من هنود، وصينيين، وفارسيين، وأعراب، وأتراك».

وأنا أكثر شفقة على قرّاء مثل هذا الكاتب الذي يكرِّر لهم ما قيل من قديم

الزمان، و- ربّما- مَسَخه أو شوه محاسنه، وزَفَّه إليهم عاطلاً ناقصاً.

هكذا أنا، وهكذا هو اعتقادي، عند كتابة هذا الموضوع الذي كتب فيه فطاحل العلماء، وأُلِّفَت فيه الكتب، وخاض غماره كلّ فيلسوف كبير، وعالم عظيم، وتناقضت فيه المبادئ، واختلفت فيه الأفكار، إلى درجة استحسان القبيح، واستقباح الحَسَن، ممّا يضيع في غمراته رشد الغائص على لآلئ الحكم، ويتوه في وديانه عقل الباحث على أصول الحقائق، وخصوصاً في موضوع كهذا، يجمع في طياته وثنايا طبقاته، من المبادئ، ما له مساس بالأخلاق والتربية والعلوم، وعلاقة الظروف بالرجال، والرجال بالظروف، وانتهاز الفرص، ودخل الحظّ في نجاح الإنسان وفشله.. وهكذا. حتى لقد خطر ببالي أن لا أجوس خلال هذه الديار، العتيق منها والحديث، وأنا ناقص التجربة، علماً وعملاً.

***

خطر كلّ ذلك في فكري، وكلّما أقدمت على الكتابة احجمت ، فلا أنا أود أن أقدِّم للقرّاء، الذين أعهد فيهم العلم الواسع، شيئاً لا يليق بهم، ولا أنا أريد أن أتمثَّل باللورد «كلفن» أحد علماء العلوم الطبيعية في العهد الأخير، الذي كان يكتب مقالة لإحدى المجلّات العلمية عن إبرة البوصلة المعروفة، فوقف عند نقطة رأى عنده لزوم إدخال إصلاح جديد على الإبرة، فترك مقالته لم يكملها إلا بعد عشر سنوات، تمكَّنَ فيها من اختراع ما يصلح هذه الآلة الدقيقة.

أريد، بذلك، أن هذا الموضوع تشعَّبَ معي عند التفكير فيه، إلى درجة أنه خُيِّل إليَّ أن مقالة واحدة لا تسعه، وأنني لو كتبت فيه كتاباً ضخماً ما

وفَّيْته حقّه من البحث اللازم، وأنني، بعد ذلك كلّه، لا آتي بشيء جديد!!

***

قبل البدء في الموضوع، يجب أن نعيِّن- أوَّلاً- «ماذا نريده بالنجاح في الحياة». يراد بالنجاح، في الحياة، «نجاح الإنسان في الوصول إلى غاية، يعدّها الناس، ويراها الواصل إليها، غاية عالية» وهي تختلف باختلاف الأنظار الموجَّهة إليها، حتى أنه ليصعب على الإنسان حصرها ضمن دائرة واحدة. ولقد حاول «ماكس نوردو» الفيلسوف العصري الألماني أن يحصرها، فقال: «يمكنني حصر النجاح في أن يكون الإنسان محترماً، ذا قدر عظيم في نظر الكثيرين من الناس»، ويناقضه غيره بقوله: «وماذا يهمّ الإنسان أن يكون محترماً ذا قدر عظيم في نظر الناس، وهو منغَّص البال حزين القلب؟» ويقول آخر: «هل النجاح في الحياة أن يكون الإنسان محترماً عند الناس، وهم لا يحترمون إلا الأغنياء، ولو كانوا جهلاء، ويحترمون- أيضاً- كثيرين ممَّن قام مجدهم الظاهر على ظروف أحوال، وممَّن وصلوا إلى مراكزهم بأسفل الوسائط، وأدنى الوسائل؟». كل ذلك يدعونا إلى القول بأن اختلاف الناس، في الغاية التي يرمون إليها، هو الذي يزيد الموضوع إشكالاً: فهذا يرى النجاح في الحصول على مركز في الحكومة، وذاك يراه في اكتساب المال، وذلك يراه في رفعة الجاه، وآخر يراه في إصلاح حال البشر، أو نشر فضيلة وقطع دابر رذيلة، وللّه في خلقه شؤون!.

يقول «ماركوس أوريليوس» الفيلسوف الروماني «يعجب العنكبوت بنفسه إذا اصطاد ذبابة، ويتباهى رجل إذا اصطاد أرنباً، وآخر يفرح

إذا أمسكت شبكته سمكة، وأحدهم إذا انتصر في موقعة، أو فَتَح مدينة». والحقيقة أن اختلاف عقول الناس في تقدير أشياء هذا الوجود، ممّا يدهش العقل، فما تراه رذيلة يراه غيرك فضيلة، وما يكون في هذا الموضع حسناً يكون في غيره قبيحاً، وما يُمدح عليه الرجل تُذَمّ عليه المرأة. قال الإمام عليّ (كرَّم الله وجهه): «خيار خصال النساء شرار خصال الرجال (الزهو، والجبن، والبخل)؛ فإذا كانت المرأة مزهوّة لم تمكَّن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت (فزعت وخافت) من كلّ شيء يعرض لها». ومن كلمات «باسكال» المأثورة: «حقيقة هنا، وخطأ وراء البيرينيه»).

فاختلاف العقول، في كلّ شيء، يؤدّي إلى عدم وجود «وحدة» متَّفَق عليها، فلكي نفصِّل ما نريده بالنجاح في الحياة، لابدَّ لنا من وضعه ضمن دائرة وحدود، وغايات مخصوصة، لكلّ غاية مسعًى خاصّ بها، يلزم طالب النجاح أن يوجد همّته إليها، وفي ذلك ما يساعد طالب النجاح على الوصول إلى مراده.

***

يمكن حصر النجاح في الحياة في ثلاثة أصول:

(1) الشهرة، والجاه، وشرف السمعة، وما يجرى مجرى ذلك من الأُبَّهة والاحترام والإجلال.

(2) السعادة الدنيوية، واطمئنان البال.

(3) الثروة وما تجلبه من الحصول على المشتبهات وقضاء اللذات.

(الشهرة): يقول عنها «ملتون» الشاعر الإنجليزي، «إنها آخر نقص في النفوس الشريفة، يريد، بذلك، أنَّ طَلَب الشهر لذاتها نقص في النفوس الشريفة، ومراده أن النفوس الشريفة تطلب الشهرة، وان كان ذلك نقصاً في استعدادها، وحطّاً لمنزلتها، فإن «شيشرون» يقول: «يجب أن يكون المجد والفضيلة، لا الشهرة، أَحَبّ مطالب النفوس، بل الغرض الوحيد في الحياة».

ولا نريد أن نخوض، الآن، في ماهيّة الشهرة، وأصناف الشهرة: الكاذبة، وغير الكاذبة، والدائمة وغير الدائمة. لكن، نكتفي بالقول إنه إذا كانت غاية المرء من الشهرة شريفة، كأن يقصد المرء بها خدمة الجنس البشري، وإرشاده، وقيادته، وترك أثر نافع وراءه، فهي من أشرف المطالب التي تتوجَّه إليها النفوس الشريفة، لا كما قال «ملتون». ولا نخوض- أيضاً- فيما إذا كانت الشهرة في ذاتها تفيد صاحبها في الحياة، أو لا تفيده، فقد يذهب بعضهم إلى أن الشهرة مجلَبة للعناء والشقاء، في هذا العالم، حتى قال بعضهم: «الرجل الشهير كَراكِب الأسد، يهابه الناس، وهو لمركبه منهم أهيب»، وقال آخر «الظهور يقصم الظهور»؛ لما في ذلك من الحيطة والاحتراس والضغط على حرّيّة الإنسان وأمياله النفسانية من جهة، والخوف من السقوط في عين الأمّة والعالم، بهفوة صغيرة، من جهة أخرى، إلى غير ذلك ممّا تجلبه الشهرة على صاحبها، وقد تكون نافعة مفيدة له، في بعض الأحيان، تحت شروط وظروف مخصوصة.

فإذا كانت بغية الناشئ الطامح هي الشهرة، وما يتبعها ويجري

مجراها، فتلزمه تربية خاصّة، وإرشاد مخصوص، واستعداد فطري، على شكل خاصّ (السعادة الدنيوية واطمئنان البال). يقول «ملتون»، الشاعر الإنجليزي، في إحدى قصائده: «العقل، وهو في مكانه، يمكنه أن يجعل من النعيم جحيماً، ومن الجحيم نعيماً».

وفي هذه الكلمة الصغيرة كلّ المعاني التي أن يؤتى بها عن السعادة واطمئنان البال، في هذا الوجود. كن غنيّاً كما تشاء، كن شهيراً كما تشاء، كن قويّ البنية سليم الأعضاء كما تشاء، وكن كما تشاء فيما تشاء، لكنك لن تكون سعيداً مستريح البال مطمئنّ الخاطر إلا إذا أراحك عقلك، وأسعدك فكرك.

ما السعادة؟ وما الشقاء؟ شيئان متناقضان حقيقةً. لكن، قلْ لي- بعيشك-: أليس كلّ ما في هذا الوجود أمور نسبيّة فيما بينها؟ يراك الناس سعيداً، وأنت ترى نفسك شقيّاً، وترى غيرك سعيداً، وهو يرى نفسه شقيّاً؛ فما هو الحَدّ المحدود الذي يفصل الشقاء من السعادة؟ لا يمكنك، أبداً، أن تضع حدوداً وشروطاً مخصوصة، فتقول: «هنا تقف السعادة»، أو «من هنا يبتدئ الشقاء»، فالموت الذي يراه الناس أكبر مصائب هذا الوجود، يراه بعضهم رحمةً وراحةً واطمئنان بال من عناء الحياة:

ليس من مات، فاستراح، بميّت إنما الميّت مَيّت الأحياء

وقال أبو العلاء:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ قلب فيها، والعيش مثل السهاد

فحتى في هذا الأمر الفادح، والخطب الجلل، تختلف العقول، فكيف

يمكنها- إذن- أن تريك أين تكمن السعادة، أو أين يكمن الشقاء؟ على ذلك، ترى أن قول «ملتون» إن العقل يجعل من النعيم جحيماً، ومن الجحيم نعيماً، هو حلّ إشكال كلمتَي السعادة، والشقاء، فعقلك هو الكفيل بسعادتك أوشقائك. ويلزم لجعل العقل مؤدِّياً لسعادة الإنسان أن يكون حائزاً لمعارف خاصّة، وأن يكون ذا استعداد خاصّ، ومزاج خاصّ، كما سنفصِّله، بقدر ما يحتمل المقام.

(الثروة) وما تجلبه من الحصول على المشتهَيات، وقضاء اللذّات، هي، اليوم، الغاية التي تصوَّب إليها سهام الأنظار الطامحة الطامعة. هي، اليوم، معبودة العالم، من صغيره إلى كبيره، إلى درجة أن هذا الشغف بالثروة حجب عن أنظار طلّابها الغرض المقصود منها. حتى أنك لترى الذين نالوا بغيتهم منها يحتقرونها، في نهاية الأمر، عندما يرون أنها لم تُزِدهم نقطة سعادة واحدة في كأس حياتهم، بل- بالعكس- رأوا أنهم جمعوا لغيرهم، وكدّوا لسواهم، وما حازوا، من دنياهم، إلا الشقاء والعناء. ولا يغرنَّك ما تراه من عربات عريضة واسعة، وخيول مطهَّمة وملابس مبرقشة مزوَّقة، وقصور باذخة، وأسباب لذّات متوفِّرة، فما كل ذلك بنافع صاحبه، ولا هو بمُزيده لذّةً صغيرة عن أحقر حقير، وأصغر صغير.

قال «هلفسيو»، في كلام له عن اللذة: «لذّة الفقير أقوى وأنفع وأكثر من ملذّات الغنيّ: يأكل الفقير بلذّة يتمنّاها الغنيّ، ولو أنفق كلّ ماله» بل- إذا شئت- إن اللذات المادّيّة للجنس البشري متساوية متعادلة، في درجتها الطبيعية، إنما تزيد وتقوى عند شدّة الحاجة إليها، فهي عند الفقير أقوى منها عند الغنيّ».

لكن، إذا كانت الثروة لا تجلب سعادة ولا لذّة، فكيف توجَّهت إليها النفوس بمثل هذا الشغف والشوق الشديدين، وجعلتها إحدى غايات النجاح والفوز في الحياة؟ أقول- حقيقة- إن الثروة جديرة بأن تكون مطمح أنظار وهدف سهام؛ لأنها إذا اصطحبت بالعقل والحكمة كانت من أكبر وسائل السعادة الشخصية والجاه والشرف والرفعة، و- إن شئت- العلم والفضل، وكلّ ما تطمح إليه نفس، أو يصبو إليه فؤاد، لكني أقول- أيضاً- إنها قَلَّ أن تُصحَب بالعقل الرزين المعتدل، لتناقض الاعتدال والشغف بالمال، في كثير من الأحوال؛ ذلك لأن الرجل المعتدل في شؤون وأموره ومعيشته وأعماله لا يفرِّط في الحرص على المال في مبدأ عمله، أبداً، بل تراه يتمتَّع بالجزء الأعظم منه، ويدَّخر شيئاً للمستقبل، ومن كان هذا حاله يستحيل عليه أن يجمع مالاً، أو يحصِّل على ثروة كبيرة إلا بظروف خاصّة نادرة، لا يصح أن تُتَّخَذ حجّة في رأي، أو برهاناً على فكر. وقد دلَّت التجارب أن الذين حازوا ثروة في العالم، بعملهم واجتهادهم، وبنوا صروح مجدهم على الدرهم والدينار، كانوا شواذّ في إفراطهم: إمّا في الحرص والبخل، أو في الإقدام والمجازفة، وليس يدخل الرجل الرزين المعتدل بين هاتَيْن الطبقَيْن.

لذلك، ترى أن الكثير من الأغنياء يُبتَلَوْن بأمراض خاصّة، وأمراض عقلية متنوِّعة، تُعَوِّقهم عن التمتُّع بلذّاتهم وثروتهم، حتى لو نالوا، من شرف السمعة وعلوّ الجاه، ما يصل بهم إلى مراتب الملوك.

خذ- مثلاً- رجلاً مثل «بيربونت مورجان»، الرجل الذي أدهش العالم بذكائه واستعداده لجمع المال واستثماره، وهو في صحّة وقوّة بدنية، أَفَتراه متمتِّعاً مسروراً مستريحاً؟ أتراه يتلذَّذ بحياته كما يتلذَّذ بها رجل

معتدل في الثروة والعقل؟ تقول: لماذا لا يتمتَّع بثروته؟ فأقول: لأنه بُلي بأمراض عقلية، وأعراض طبعية، جعلته يطمح إلى شيء خاصّ، ليس في إمكاني أن أوضِّحه لك، أو أن أضعه ضمن دائرة محدودة، بل يكفي أن تعرف أنه شيء من مطالب الحياة التي تحرم الإنسان من راحة عقله.

وليس يغرب عن فكر أحد أن طلّاب الثروة وعشّاقها الكثيرين يُفْتَنون بحبّ الدنيا افتتاناً، والإفراط في كلّ شيء خروج عن حَدّ الاعتدال، وانتقال به إلى ضده. وأريد أن أقول: إن كلّ إفراط في صفة من الصفات مضعف وناقل لها إلى ضدِّها، وفيه اختلال للتوازن العقلي. وما أحسن ما يقوله «ملتون» عن الدنيا: «لا تحبّ دنياك ولا تبغضها، ويكفيك أن تعيش ما تعيشه منها براحة واطمئنان»!، فحبّ الدنيا إلى درجة الافتتان بها متعب ومضرّ، وكرهها إلى درجة الزهد فيها مضرّ، أيضاً.

وعلى كلّ حال، فما حُمْتُ حول هذا الفكر إلا لأبَيّن، قبل الكلام عن التربية والصفات اللازمة للحصول على مطمع الثروة، أنها- كسابقتَيْها: الشهرة، والسعادة- لا تكون نافعة أو صالحة، إلا إذا قُرنت بالحكمة والعقل، وأن مطمع الرجل العظيم يجب أن يكون عظيماً محكماً، بحيث تكون النتيجة جديرة بقدر المسعى؛ أي يكون الذي تحصل عليه يساوي ما أنفقته من عمرك وفكرك.

أردت أن أخوض في غمرات التربية، والاستعداد اللازم للفوز في الحياة، لهذه الطبقات، وهذه المقاصد الثلاثة، فتشعَّبَت معي المسالك، ولم أقدر أن أحدِّد نوعاً من تربية يصلح للفوز في إحدى هذه السبل، حتى لقد ذهب فكري إلى أن لا دخل لتربية، ولا دخل لعقل أو فكر. إن القارئ ليندهش

من قائلٍ يقول إن التربية لا دخل لها في النجاح في الحياة، ثم إن الأنكى من كلّ ذلك أن لا دخل لعقل ولا فكر. إن هذا القول يكاد أن يكون تخريفاً، وأنا أكاد أصدِّق نفسي، وأصدِّق المعترض عليّ، وكلّ ذلك متناقضات أحوال هذا الوجود.

كم من عالِم عامل!، وكم من رجل قضى عمره بين الكتب والدفاتر والمخابر!، وكم من رجال ذوي عقول واستعداد وذكاء، لم ينجحوا في الحياة، وفاز كثيرون بنيل الشهرة والثروة، والسعادة، بغير هذه العلوم وبغير هذه الكتب والدفاتر، وبغير شيء ممّا نظنّه خير الوسائل للنجاح!.

يقول «داروين»، شيخ علماء القرن الماضي، وخصوصاً فيما يختصّ بالإنسان: «إنني أميل إلى الاعتقاد بأن التربية والتعليم لا يفيدان في أخلاقنا ونفوسنا واستعدادنا للفوز في الحياة، وأن كلّ ما لدينا راجع إلى فطرة موروثة». ويقول «هربرت سبنسر»: «لو لم يكن عندنا، من العلم، إلّا ما نتعلَّمه في المدارس، لكانت إنجلترا، اليوم، على ما كانت عليه في القرون الوسطى، فجميع ما عندنا من المعارف الكبرى التي صرنا بها أمّة عظيمة في الدنيا لم تنشأ من المدارس المعَدّة لذلك، بل من أكواخ صغيرة وزوايا مهجورة». وقال ديمولن «إن الكثير ممّا نتعلّمه في المدارس لايفيدنا في حياتنا».

وهنا موضوع البحث والمناقشة: إذا لم تنفع التربية والتعليم حتى في إظهار ثمراتها في الأمور الصغيرة، فلأيَّ شيء يُنسَب نجاح أولئك الذين ينشأون في الأكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة؟ وهل يرجع ذلك إلى الحظّ، أم إلى العمل؟

تأثير الحظّ في النجاح

الحظّ ومترادفاته، والبخت، والمقدور، والمواهب، والمصادفات، والظروف. والاستعداد الفطري.. إلى غير ذلك، كلّها ترجع إلى أصل واحد، هو فوز الإنسان بغير عمله وكده ونَصَبه. أو- بعبارة أخرى- مساعدة الظروف والمقادير له، في حال من الأحوال، ومعنى ذلك عدم استقلال الشخص في ذاته ونتائج أعماله.

ينكر بعض الناس الحظّ والمقادير، ويقولون: «كلّ إنسان بعمله، ليس له إلّا ما قام به بجده واجتهاده». وعندما يرون من أحوال هذه الدنيا، في أنفسهم وفي غيرهم، ما يدلّ على أن كثيرين تأتيهم المطالب جزافاً بغير كدّ وعمل، يقولون إنها المصادفات والظروف، وكلّها- وإن تنوَّعت أسماؤها- ترجع- كما قلنا- إلى أصل واحد. قال «بوب» أحد مشاهير شعراء الإنجليز: «نحن ألعوبة في يد الأقدار، ترمينا يميناً وشمالاً، ونحن لا نعرف إلى أين نسير. فكما أن الحمل الصغير يمرح ويلعب قبل أن يُذبَح بدقيقة واحدة، و- ربّما- لحس بلسانه اليد التي مُدَّت لِتُريق دماءه، كذلك نحن؛ لا نعرف شيئاً ممّا ينتظرنا بعد لحظة واحدة». ومع هذا، فإن عقول الباحثين الذين غاصوا في لجج العلوم والمعارف لا تكاد تستقرّ على نقطة واحدة في هذا الخلاف، الذي هو، في الحقيقة، أكبر خلاف بين

العقول البشرية، من قديم الزمان، حتى لا يكاد يخلو منه عصر من العصور؛ فتراه في فلسفة الهنود، كما هو في فلسفة اليونان، كما هو في الرومان، وفي مدنيّة الإسلام، وفي المدنيّة الحاضرة، وله في كلّ زمان شكل واسْم، وخلاصته: «هل الإنسان مسيّر أو مُخَيَّر؟» وهل القدرة المدبِّرة لهذا الكون قيَّدت الإنسان بسلطة، أم تركته حرّاً فيما يشاء، وغاية الأمر أنها المصادفات التي لا رابطة لها، ولا قانون يجمعها؟:

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصَيَّرَ العالم التحرير زنديقا

ولبعض الفلاسفة المتأخّرين من المادّيين رأيٌ في هذا الموضوع، يرونه يحلّ هذا الإشكال، فيقولون: «لا عقل ولا روح ولا نفس في الإنسان أبداً، إنما هي الأجسام تختلف في التركيب والأمزجة، والضعف والقوّة، لهذا العضو ولذلك الجهاز، فيختلف معها الإدراك، ويختلف الاستعداد، ويمتاز الناس، بعضهم على بعض، فيما يسمّونه عقلاً ونفساً وروحاً». وهنا، يجب أن تقف وقفة صغيرة لمناقشة هذا الرأي المادّي الحديث.

يقولون إن الإنسان شبيه بالآلة البخارية أو بآلة من الآلات، تتركّب من عدّة أدوات: صغيرة، وكبيرة، كلّ أداة تقوم بوظيفة، ومجموع القيام بهذه الوظائف يُنتِج حركة أو نتيجة مقصودة مطلوبة. فالمخّ والأعصاب والقلب والمعدة والرئتان وكلّ ما في الجسم من الأعضاء، التي تربو على الألف عَدّاً، هي الآلات الصغيرة القائمة بوظائفها خير القيام، بلا ضعف أو مؤثِّر خارجي «إدراك» أو «عقل» أو «فكر» أو «روح» أو «نفس»، كما يترتَّب على قيام أجزاء الآلة البخارية بوظائفها «حركة» أو «دورة» أو «ضغط» أو «رفع».. وهكذا.

وقد قامت، على قضاياهم هذه، براهينُ كثيرة، لا تقبل النقض، وتوسَّعوا فقالوا: «المعدة هي الرجل»؛ بمعنى أن الرجل كمعدته، إذا كانت قويّة كان عقله قويّاً، وكان استعداده أرقى وأعلى من مريض المعدة. وهكذا قلْ عن كثير من الأعضاء الرئيسية في الإنسان، كالدماغ والقلب والرئتين، ويجمع ذلك قولهم: «العقل السليم في الجسم السليم»، وإذا تمعنّا قليلاً في هذا الرأي نرى أن لهذا الفريق من الفلاسفة حقّاً في كثير ممّا يقولون، فإنك لنرى أناساً كثيرين يريدون إدراك المعالي، لكنهم، لضعف في أجسامهم، لا يقوون، ولا يداومون على الأعمال. بل إن الأخلاق نفسها أثر من آثار الجسم وأعضائه، فترى الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبداهة، ثم الملل والفتور والكسل والميل إلى الشهوات، من صفات عصبيِّي المزاج. وترى القوّة والبطش والحمق والإقدام والطيش من صفات دمويِّي المزاج، وقل ما شئت في أخلاق الخليط من الأمزجة المعروفة، كأن يكون الشخص دمويّ المزاج صفراوِيْهِ، عصبيِّهِ. فعلى هذا التركيب الخاصّ، في أجسام الناس، تترتَّب الأخلاق والصفات والاستعداد، و- إن شئت- الفوز والفشل؛ ولعلّ ذلك هو معنى قول داروين: «إن كلّ ما لدينا من الصفات والأخلاق راجع إلى فطرة موروثة».

وهنا، يتشعَّب معنا مسلك آخر، هو: هل يريد «داروين»، بالفطرة الموروثة، فطرة يرثها الأبناء عن الأمَّهات والآباء، أم يريد بها الفطرة الطبيعية للإنسان؟ إنني لا أعتقد في وراثة الأبناء عن الأمَّهات والآباء بمعنى الوراثة التي نفهمها، لكني أعتقد بوراثة الأمزجة من الأمّ والأب. وفي اعتقادي- أيضاً- أن العلماء إذا أمكنهم- حقيقةً- أن يقفوا على حقائق الأمزجة وتأثيرها التامّ على الأفعال والأخلاق والاستعداد، وأمكنهم- أيضاً- أن

يعرفوا ما يكون التناسل من الأمزجة المختلفة، فإنهم يحلّون أشكالاً كبيراً، ويساعدون على ترقية الجنس البشري. إلّا إننا، من حيث موضوعنا هذا، وعلى فرض اعتقادنا بالرأي الأخير (وهو إن أخلاق الإنسان ونجاحه وفشله وارتقاءه وهبوطه واجتهاده وكسله، كلّها ترجع إلى تركيب أعضاء جسمه وقيامها بوظائفها)، ننسب هذا الانتظام الجثماني، إلى ما هو خارج عن عمل الإنسان واجتهاده، ويكون الإنسان، في الحقيقة، آلة تسير كما شاء صانعوها الأُوَل، أو كما جاءت عفواً وجزافاً، ويكون لا مزية لأحد على أحد، ولا ذنب على مقصِّر، ولا عيب على ناقص، ولا فضل لعالم أو لكامل:

لو يعرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

ثم نرجع، بعد هذا، إلى القول بأن الإنسان واقع تحت سلطة من المقادير والمصادفات والظروف، وأن اجتهاد الإنسان لا يفيده إلّا إذا كان ثمّة استعداد فطريّ فيه، بل إن صاحب الاستعداد ينقاد إلى العمل بفطرته التي فُطِر عليها، ثم نميل، في حُكْمنا، إلى قول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

أو كما قال بعضهم:

ألا إنّما الدنيا كمثل رواية تمثّلها الأحوال، والقول، والفعل

ونحن كأشباح نمثّل دورنا كما شاء كُتّاب الرواية من قبل

تأثير العمل في النجاح

هذا فيما يختص برأي القائلين بوقوع الإنسان تحت سلطة «الحظوظ» والمصادفات، لكن هناك فريقاً آخر يقول بالعمل والجدّ والاجتهاد، وانتهاز الفرص، والاعتماد على النفس. ويجدر بنا، هنا، أن ننظر إلى رأي هذا الفريق، ونعرضه على حضرات القرّاء لنستخلص من الرأيَيْن وسطاً، يكون مناراً يستهدي بنوره كلّ طالب للنجاح والفوز في المطالب الثلاثة، التي بيّناها في أوَّل هذه الرسالة.

الكتب والرسائل: القديمة، والحديثة، مفعمة بالحجج والآراء السديدة التي تحثّ على العمل والاجتهاد، وضرورة ذلك لطالب الفوز والنجاح في الحياة. وفعلاً، كيف يمكن لأحد أن يحصل على مراده إلّا بالسعي والعمل والجدّ والجلد؟ لا خلاف- مطلقاً- في أنه لابدّ من السعي وانتهاز الفرص حتى مع وجود الاستعداد الكفيل بالنجاح، وحتى إذا اعترض القائلون بأن الاستعداد الطبيعي هو الدافع للعمل، فإن الظاهر للناس هو أن الذين ينجحون في الحياة لا يصلون إلى أمانيهم ومطامعهم، من الدرجات العالية، إلا بالعمل والاجتهاد. قال اللورد «أفيري» (السير جون لوبك)، في كتابه «مسرات الحياة»: «كلّ من يسعى للفوز في الحياة يناله، وإن كان لا يدرك منه كلَّ ما كان يؤمِّله في نفسه. إن الفشل الشريف خير من الفوز

الدنيء. ولَعَمري، إن الإنسان إذا حاول ثم فشل، لا يخسر شيئاً مطلقاً إلّا إذا تولّاه اليأس، ودخل على قلبه القنوط. وإننا إذا لم نحصل على مرادنا مرّة، فليس ذلك بداع إلى قطع الآمال»، وقال باكون: «من يسعى ويتيقَّظ يبصر الحظّ، فإنه (أي الحظّ)، وإن كان أعمى، لا يبصر، فإن العيون تبصره». وقال الشاعر العربي:

وعليّ أن أسعى وليـــــــــــــس عليّ إدراك النجاح

وينتج من ذلك أن العمل ضروريّ للنجاح، ولكنه ليس كفيلاً به، وعدم كفالته به يرجع إلى أسباب كثيرة، منها اتِّساع دائرة المطامع، وعدم تعيين الغاية التي يرمي إليها طالب النجاح؛ ذلك أنك تجد كثيرين من ذوي العقول الكبيرة والاستعداد الكبير، يطمحون إلى ما فوق طاقتهم، بل- في كثير من الأحيان- إلى ما هو فوق طاقة البشر. ومنشأ هذا الغلوّ، والإفراط في المطامع والآمال، أحلام يولِّدها الشباب، وقلّة التجارب، وعدم قياس الحاضر بالماضي. وما أوسع عقول الشبان الأذكياء، في مبدأ حياتهم، ميداناً للتصوُّرات والأوهام، حتى لقد يخيَّل إلى الواحد منهم- وهو لايزال في دور التعليم- أنه لا يكاد يحصل على شهادته النهائية، حتى يلمس قبّة الفلك بيديه، ويصل إلى ما وصل إليه غيره في عشرات من السنين، جاهلاً ما يعترضه من العقبات التي يحتاج تجاوزها إلى الحزم والعزم والجَلَد والثبات والإقدام والصبر والانتظار، حتى إذا فارق أبواب المدرسة، واستقلَّ في العمل الذي وضع نفسه فيه، تراه يحلِّق في جوّ الأحلام، ويطيش سهمه في بيداء الأماني والآمال، ويجدّ ويجتهد سنةً أو سنتين، فلا يجد نفسه، بعد ذلك، إلّا واقفاً على عتبة باب النجاح الذي خُيِّل إليه في مبدأ أمره، أنه يرقى، بواسطته، إلى أعلى قمم المجد في أيّام ولياٍل. عند

ذلك، يتولّاه اليأس، ويتسرَّب إليه الظنّ بأنه لم يحسن اختيار الطريق، ويتذبذب، في سيره، تذبذب «البندول» في موضعه، ويجلس في غرفته كئيباً حزيناً، يبحث عن طريق آخر لنيل أمانيه الواسعة الكبيرة. وهكذا، يقضي أيّامه مجتهداً عاملاً، لكنه غير مستقرّ على حال، كريشةٍ في مهبّ الآمال، تراه كلّ سنة في طريق، لا يكاد يقطع منه بضع خطوات، حتى يرجع إلى غيره وتتوزَّع مواهبه، وتنقبض نفسه، ويرجع من كلّ عمله بالخيبة والفشل (كالمنبتّ: لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى)، وكما يقول الإنجليز، في أمثالهم «الحجر المتدحرج لا ينبت عليه العشب». مع أنه لو ثبت في مكان واحد، وداوم على عمل واحد، ووضع نصب عينيه غايةً من الغايات، فإنه، في الغالب، (مع ملاحظة ظروف أخرى) يصل إليها، ويقرُّب منها، كما قال الأمام علي (كرَّم الله وجهه): «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان»؛ لذلك حَذَّر الكثيرون من العقلاء طلَّاب النجاح من اتِّساع دائرة المطامع والتردّد، فقال المتنبّي:

إذا كنت ذا رأيٍ فكن ذا عزيمة فإن فسادَ الرأي أن تترددّا

ولذلك- أيضاً- قال اللورد «أفيري»: «كلّ من يسعى للفوز في الحياة يناله، وإن كان لا يدرك منه ما كان يؤمِّله في نفسه». ولا يخفى أن كثرة المطامع تُضِلّ العقول، كما قال الإمام علي (كرَّم الله وجهه): «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ومن الأسباب التي لا تكفل النجاح مع العمل، عدم تقدير الظروف والمناسبات. فإنك لتجد كثيرين من الناس نهضوا في ظروف غير مناسبة، ولم يقدِّروا العقبات التي في طريقهم حَقّ قدرها، وخُيِّلت إليهم الطرق

آمنة، والسبل مفتوحة، فأقدموا على اجتيازها مندفعين بحماسة، وَلَّدَتها عقولهم الذكيّة، فجاهدوا وجالدوا، لكنهم عادوا، بعد ذلك كلّه، بالخيبة والخذلان، يسبّون الزمان والمكان، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُذكَر. قال الدكتور «جونسون»، الشاعر الإنجليزي الشهير، في قصيدة عنوانها «غرور المآرب الإنسانية»، يخاطب الناشئ الطامع»: «.. ولكن هَبْ أنك بلغت ما لم يبلغه سواك حتى سَلَّمَت لك كنوز العلوم مفاتيحها، وقادتك الحقيقة بشعاعها الساطع الوضّاح، وصَبَّتْ على الشكّ المريب نورها الباهر الزاهر، وهَبْ أنك لم تُخدَع بالإشفاق عليك، والميل إليك، ولم تَثْنِ عزمَك المصاعب، وهَبْ أنك لم تركن إلى الإهمال مرَّةً، ولم يسلب فؤادك فاتن الجمال، فطاشت سهامه المسدّدة بالنبال، وهب- أيضاً- أن آلام الأمراض لم تعرف لك مكاناً، ولم تزرك الأحزان يوماً ما... فلا تظنَّنّ، بعد ذلك كلّه، أن العيش خالٍ من الهموم والأكدار. إليك عني، وسرِّح طرفك قليلاً في ماضي الأيّام وسالف الدهور، واترك دروسك ساعةً تتعلّم فيها علوم الحكمة والاعتبار بغيرك، وانظر ما ينتظر طالب النجاح، على باب مدرسته، من متاعب الحياة الدنيا. هنالك، ينتظره الحسد والتعب والحاجة والفاقة، وبعد ذلك القبر المفتوح. وانظر إلى الأمم كيف تراها بطيئة الإدراك، قليلة العدل، لدرجة أنها لا تعظِّم مقام رجل كبير عندها إلّا بعد أن يصير جسمه تراباً. وإن غرّتك الأحلام، بعد ذلك، فاعتبر بحياة ليديات) وما تَمَّ بـ«غاليليو..)».ويريد، بذلك، هذا الشاعر العظيم، أن أمثال ليديات، وغاليليو، وغيرهما، ممّن لا تكاد تُحصَر أسماؤهم،

لم ينجحوا النجاح الذي يطلبونه، لأنهم قاموا في ظروف غير مناسبة لأعمالهم، وهم كما قال «توماس غراي» الشاعر الإنجليزي، في قصيدته الشهيرة المسمّاة «مرثية كتبت في صحن كنيسة خلوية» [1]: «كم من درّة ثمينة ذات أشعّة صافية، تحجبها بطون البحار التي لا قرار لها!، وكم من زهرة تزهو، وتذبل، وتضيع رائحتها الزكيّة في هواء الصحراء!».

ولدينا في الشرق، رجال كثيرون، لو تمهَّدت لهم الظروف، وفَتَح لهم الوسط، الذي يعيشون اليوم فيه، أبواب التقدُّم والارتقاء، لكان فينا أمثال بسمارك، وغلادستون، وشمبرلن، ونابوليون، ومولتك، وسبنسر، وسيمون، وكيلنغ، وروتشيلد، وكارنجي، وروكفلر، ومورجان. ولقد صدق الشاعر الشرقي الذي يقول:

تقلدّتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كفّ منهزم

ومن الأسباب التي لا تكفل النجاح مع العمل، عدم انتهاز الفرص؛ فإن كثيرين من الطامحين الطامعين يجدّون ويجتهدون بثبات وتؤدّة، لكن الفرصة التي لو انتهزوها لخطَوْا أكبر خطوة في طريق النجاح، تفوتهم. ومن غرائب هذا الوجود تأثير الأمور الصغيرة على الكبيرة، فقد توجد لحظات صغيرة، في حياة الإنسان، يترتَّب، على حركته أو سكونه فيها؛ إما صعود إلى السماك الأعلى، أو انحطاط إلى الدرَك الأسفل. قال «نابوليون الكبير»: «في موقعة مونتيللو، أمرت كليرمان (أحد قوّاده) بالهجوم بثمانمئة فارس من الخيّالة، تمكَّنت بها من فصل 6000 جندي من البيادة المجريّة أمام أعين الخيّالة النمساوية الذين كانوا بعيدين، عن

إخوانهم المجريّين، بمسافة لا تزيد على فرسخ، يحتاج قطعه إلى ربع ساعة من الزمان. وكثيراً ما كنت ألاحظ أن هذه الأرباع من الساعة الزمنية هي التي تقرِّر الانتصار أو الخذلان في موقعة من المواقع»، وقال «فيكتور هوغو»: «توجد بعض دقائق ولحظات، إذا نام فيها الإنسان مات» وقال العربي: «إن الفرصة إذا لم تنتهزها تصير غصّة».

ويدخل، ضمن ضياع الفرصة، ضعف الإقدام، كأن يكون الإنسان شديد الحرص، كثير الحذر، في وقت تلزم فيه المجازفة وعدم المبالاة. وهذا محمَّد علي باشا، مؤسِّس العائلة العلويّة، رفض مقابلة الوالي خسرو باشا عندما طلبه في ليلة من الليالي؛ لعلمه أن الوالي شعر بمساعيه، وأراد القضاء عليه. فكان هذا الإقدام منه على مخالفة الوالي، هو السبب في وصوله إلى ما وصل إليه، ولو أنه حذر عاقبة العصيان لما كان له، اليوم، هذا الاسم في تاريخ العالم، ولما وصل به الإقدام إلى مقام الملوك، بعد أن كان جنديّاً صغيراً.

وربّما فات قوم جلّ أمرهم من التأنّي، وكان الحزم لو عجلوا

تأثير الأخلاق في النجاح

ولدينا- أيضاً- نقطة أخرى، لها تأثير عظيم على مسألة النجاح في الحياة، ونريد بها الأخلاق التي تمهِّد لصاحبها سبيل النجاح، وتُعلي مركزه، وتنيله مراده. ومن المقرَّر، في أذهان الناشئين، والمذاع على ألسنة الكثيرين من الناس، أن صفات الفضائل، كالصدق والأمانة والتواضع والحِلْم وكرم النفس.. إلى غير ذلك، هي الوسائل التي تساعد الى الرقيّ والفوز في معترك الحياة، لكننا إذا نظرنا يميناً وشمالاً نجد أناساً وصلوا إلى درجات عالية في «النجاح» بغير هذه الصفات، بل بأضدادها. وهذا «ماكس نوردو» الألماني ينصح طالب النجاح بالتحايل والتظاهر الكاذب، وعدم التواضع وعدم الصدق، في رسالته التي كتبها تحت عنوان «كيف تفوز في معترك الحياة»)، يقول فيها: «كن أعظم الناس جدارة، وأَتمّهم كفاءة، وكن قائماً بأصعب الأعمال وأنفعها، ثم كن متواضعاً، فإنك لا تجد مكافأة لك على عمل»، وقال: «تواضع تقعد على الأبواب، وتترك لغيرك صدور المجالس»، ويقول: «فاخر بنفسك ولو كذباً، وأَطِلْ في كلّ ما فيه إعلاء شأنك، وأَلْحِق باسْمِكَ أسمى الألقاب. وإذا ذمّك منافسوك فاتَّخذْ ذمَّهم

برهاناً جديداً على علوّ قدرك، وقلْ إنهم يحسدونك، واعلم أن عقول الناس قاصرة، يؤثِّر عليهم الوهم فتراهم لا يقوون على معارضتك، بل يُحِلّونك المحلّ الذي رغبت فيه؛ فهم قوم يفهمون، حرفيّاً، كل ما يُقال لهم، ويعيدونه بسذاجة، بدون تمييز بين الصدق والكذب أو الجدّ والهزل.. والخلاصة: استعمل الغشّ والخداع لتصل إلى مرادك فإن ذلك هو السبيل إلى نيل المطامع والآمال..».

ومن كلمات «كبلنغ» المأثورة: «الرجل المستدير ينفذ من الثقب المستدير»، وقال أبو العلاء المعري: «**ألا إن دين العالمين رياء**»، وقال شاعر عصري:

ضَلَّ سعي الشريف، والخاسر المغـــــبون من كان طاهر الأخلاق

ونجاح الكثيرين من الثرثارين والمداهنين والمنافقين والمراوغين، يرجع- بالطبع- إلى ضعف الطبيعة البشرية، وسلطة الوهم على عقول السذَّج من الناس، وعقولهم غيرهم. وبقدر ما تكون الأمّة جاهلة واقعة تحت سلطة الأوهام والخرافات، يتمكَّن أولئك المراوغون المخادعون من الظهور والفوز بين ظهرانَيْ هذه الأمّة، فهم كاللصوص لا يسرقون إلّا في الظلام، ظلام الجهل؛ ولذلك ترى رجالاً كثيرين من ذوي العقول الذكيّة والمعارف الواسعة (خصوصاً في الشرق) متروكين في زوايا الإهمال، لأنهم لا يقدرون، بل يترفَّعون عن الصفات والطرق والوسائل، التي ينجح بها أولئك المداهنون المنافقون.

وقد شرحت، في مقالة نشرتها في جريدة «المؤيّد»، تحت عنوان «المدرسة المفسدة»، تأثير أولئك القوم الذين نجحوا (أو ينجحون) في الحياة، بهذه الوسائل الدنيئة، على أخلاق الناشئين الذين متى تحقَّقوا من أن أولئك القوم قد وصلوا إلى درجات الرفعة والثروة والشهرة بمثل تلك الأخلاق، قلَّدوهم فيها أملاً في الوصول إلى ما وصلوا إليه. إن الأفراد الذين يترفَّعون عن هذه الصفات، متى وجدوها مؤدِّية إلى نجاحهم، يكادون يُعَدّون على الأصابع. أين هم الأفراد الذين يعملون بقول شيشرون: «إذا كان كلّ الناس سافل الأخلاق منحطّها، فكن أنت قائماً بينهم عموداً من التقى والفضيلة»؟.

ولقد قال باكون: «التحايل في العمل كالمزيج من الحديد أو النحاس الذي تضيفه إلى المعدن الكريم، كالذهب أو الفضّة، يساعد على تقويته، ويصلحه للعمل، ولكنه يقلِّل من قيمته»، فمن هم الذين يفكِّرون في «القيمة» لأنفسهم إذا اعترضت مصالحهم؟ وأين هم الذين يقدِّرون الناس «بقيمتهم الأصلية»؟. ونعود فنقول، مع الرأي القائل بالاستعداد الفطري الجسماني، إن هناك أناساً هكذا خُلِقوا، وهكذا فُطروا، بطبيعتهم الأولى، ولا غرابة في أن يتَّخذوا تلك الأخلاق سُلَّماً للنجاح، فما أغرب هذا الوجود!.

ومن رأي فريق من «الوصوليّين» وضعُ الشيء في محلِّه، فإن لزمت وسائل التحايل للنجاح فلتكن تلك الوسائل، وإن لزمت الفضائل، فلتكن الفضائل، حسبما يوجد الإنسان، وحيثما يقتضي الوسط الذي

فيه يعيش، فيناسب نفسه بما يحيط به، عاملاً بقول المتنبّي:

كلّما أنبت الزمان قناة رَكَّبَ المرءِ للقناة سنانا

***

هذه هي شؤون الحياة وضروبها، فاختر لنفسك ما يحلو، إن كنت طموحاً طامعاً متطَلِّعاً إلى الثروة والفوز والجاه. ولكني أنصح لك بالرجوع في كلّ شيء، إلى عقلك، وقدِّر ما تريده لمستقبلك وراحة فكرك، واعلم، قبل كلّ شيء، أن السعادة الحقّة في غير هذه المطامع الدنيوية، ويكفينا الاعتبار بما ورد في الحديث الشريف: «اعملوا، فكلٌّ مُيَسَّر لما خلق الله».

انتهى

فهرس

الرسالة الأولى..... 7

الرسالة الثانية 11

الرسالة الثالثة 17

الرسالة الرابعة 23

الرسالة الخامسة 29

الرسالة السادسة 35

الرسالة السابعة – تعلُّم اللغات 41

الرسالة الثامنة – اللغة العربيّة نحواً وأدباً 47

الرسالة التاسعة – تعلُّم اللغة العربيّة وآدابها 53

الرسالة العاشرة – اللغة الإنجليزية.. نحواً وآداباً 65

الرسالة الحادية عشرة – الترجمة 83

الرسالة الثانية عشرة – التاريخ 95

الرسالة الثالثة عشرة – العلوم الطبيعية 105

الرسالة الرابعة عشرة – اختيار المهنة 115

الرسالة الخامسة عشرة – بعد المدرسة 123

الرسالة السادسة عشرة – السلوك 131

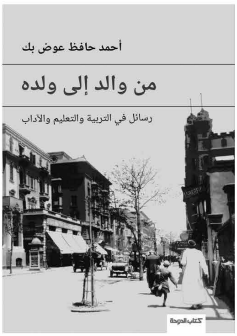
الرسالة السابعة عشرة 137

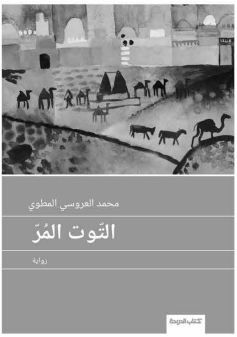
الرسالة الثامنة عشرة – النجاح في الحياة 143

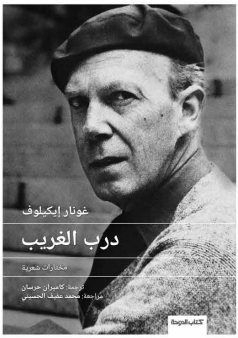
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم – بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين – أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة – مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حريّة الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم – مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر – مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري

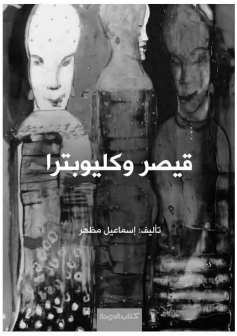
33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حمّيش
36	حي بن يقظان – تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة – ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال – مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف – رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل – ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
55	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيري
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	مي زيادة
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (١٩٣٢) تحقيق: رشيد العفاقي	أليكسي شوتان –تعريب: عبد الكريم أبو علو
59	قيصر وكليوبترا	إسماعيل مظهر
60	الصين وفنون الإسلام	ذكي محمود حسن
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكيلوف

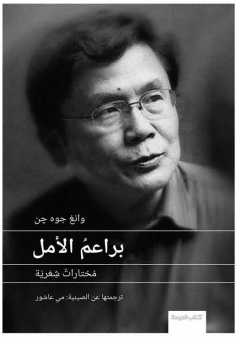












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

وبعد، فهذه مجموعة رسائل، كان يبعث بها إليّ والدي من مصر، وأنا طالب في الكلّيّة الأميركية في بيروت، وقد حرصت عليها، طول هذه السنين، حرص البخيل على درهمه. وما كنت أظن أن هذه الرسائل ستُنشر في كتاب (طبع سنة 1923)، كما أن والدي لم يكن يفكّر وهو يبعث بها إليّ، من القلب إلى القلب، أنها ستُعرَض على الأنظار، وتقدَّم للناس، في مختلف البقاع والأمصار. ولولا أن حضرة خليل بك صادق، أقنعني، وأقنع والدي بضرورة نشرها، ما ظهرت، وما نُشِرت.

فأنا، بكلّ أدب ووَجَلْ، أقدم هذه الرسائل الخاصّة إلى أهل الفضل، وعشّاق الأدب، وطلّاب الحقيقة، أينما وُجدت. وإن كان لي فضل فيها فذلك هو أنني كنت شديد الحرص عليها، عارفاً بقيمتها.

وإني أتقدَّم لوالدي مقبِّلاً يديه، رافعاً أكفّ الضراعة أن يطيل في حياته، ويحفظه ذخراً لوطنه وأمّته.

جمال الدين حافظ عوض

www.aldohamagazine.com